تحقيق معنى الصلاة

عبد الغني العمري

طبعة:
رقم الإيداع القانوني:
جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

للاتصال: abdelrhaniomari@gmail.com

مُقدِّمة

لا شك أن لكل إنسان تجربة مع الأسئلة الوجودية في مرحلة ما من مراحل حياته. ولا شك أن لكل واحد سلوكا (بالمعنى السيكولوجي) معينا حيال تلك الأسئلة. فمن الناس من يتغافل عنها، مستعينا بالأعراف والتقاليد التي يجد مجتمعه متشبعا بها. ومنهم من يسلك دربا من دروب المعرفة الفكرية، يستأنس فيه بآراء من سبقه فيه. وقد يتبنى بعض هذه الآراء، أو يتخذ لنفسه مذهبا خاصا إن توفرت له الأهلية. وأعلى هذا الصنف مرتبة الفلاسفة. ومن الناس من يهديه الله إلى دينه، فيتّبع شرعه، ويخرس تلك الأسئلة أو يؤجلها بالهروب إلى الوحي. لكن أغلب المتدينين، يقنعون بتدين سطحي، لا يسلم في كثير من الأحيان من انحرافات عقدية وعملية، يكاد يكون نوعا من التحايل على الأسئلة المقلقة. وقليل جدا من الناس، من يحافظ على تمام وعيه في الوقوف أمام المجهول. من دون أن يراوغ ضميره أو يبحث له عن مُسكِّن. هؤلاء هم أبطال طريق المعرفة والبحث عن الحقيقة. فمن ظفر منهم بالمراد، فقد وجد الكنز المفقود الذي يهون في سبيله كل عناء. ومن لم يدرك شيئا أو أدركه الموت دون ذلك، فحسبه أنه حاول ما لم يستطعه أغلب بني جنسه. وكفى به شرفا!

وبما أن سبيل البحث عن الحقيقة ينقسم إلى سبيلين: سبيل المتفلسفة، وسبيل المتشرعة؛ وبما أن سبيل الفلاسفة عندنا غير مفضية؛ فإننا سنقصر الكلام على السبيل الثانية.

لا نفعل هذا هروبا من محاورة الفلاسفة، ولا تعصبا للدين عن غير علم، ولكن نروم بذلك اختصار الطريق للناظر في هذا الكتاب. فإن بعض المقولات تستهلك العمر كله في الرد عليها وتبيين عوارها، ونحن ما نريد أن نضيع وقتنا أو وقت القارئ.

ومن جهة أخرى، لا نرى انفصالا تاما بين السبيلين المذكورين من حيث الغاية. بل نرى أن الأسئلة الأساسية في الفلسفة، ينبغي أن نتابعها داخل دائرة الدين وإن كان ذلك لا بنفس الوسيلة. فنكون قد حققنا غاية الفيلسوف من غير سبيله وبغير وسيلته. وهذا إعانة له على أمره من حيث لا يشعر.

أما المتدين، فنريد أن نخلخله عن رتابة تدينه، حتى يتنبه إلى الحقيقة التي كان قد عقد العزم على خطبتها، وما عاد الآن يرد على باله ذكرها. يوهم نفسه بأنه على الحق، وهو من الحق يفر.

أغلب المتدينين ينظرون إلى الشعائر وكأنها أعمال بدنية، تشبه أعمال أصحاب الحرف والصنائع، يقومون بها من أجل سيدهم، وينتظرون عليها أجرا كما ينتظر العامل ممن استعمله. الفرق لديهم هو أن الله هو رب العمل لا غيره. هذا منتهى ما يرون في الدين. نعم، إن خلصت النية فهذه مرتبة من مراتب العبودية، هي أدناها. ولكن هل الدين هو هذا فحسب؟!

المصيبة أن العلماء (الذين هم عند أنفسهم وعند العامة كذلك) لا يكادون يتميزون عن العامة في ذلك.

لذلك نريد أن نسائلهم:

ـ هل الشعائر التعبدية ـ التي هي توقيفية ـ لها حكمة في ترتيبها على تلك الصور المعينة أم لا؟ لا شك أن الكل يقر بوجود تلك الحكم. لكن، هل يمكن للمؤمن أن يدرك من تلك الحكم ما شاء الله له، أم أن الباب دونه مغلق، كما نفهمه مِن أغلب من يدعي الفقه؟

ـ هل للشرع جانب معرفي يكمن خلف صور العبادات، أم أن العبادات أصنام من نوع آخر، صماء لا تنبئ بشيء؟

ـ ما هي حقيقة علاقة العبد بالرب؟

ـ هل شرع الله الدين للعباد ليؤكد انفصاله عنهم، أم أنه شرعه ليفتح باب الاتصال به؟

ـ ما حقيقة وجودنا؟ وهل الوجود نوع واحد أم أنواع متعددة؟

ـ هل يمكن للعبد أن يدرك الحقيقة من حيث هو؟ فإن لم يكن، فهل تُدرك من نسبة أخرى، أم أن طلبها غير متاح؟

ـ متى نتكلم عن حقيقة، ومتى نتكلم عن حقائق؟

ـ ما الميزة التي للإنسان على باقي المخلوقات؟ وهل كل من هو إنسان في العادة متميز؟ أم أن الشرط يوجد أو يُفقد بحسب الحال؟

ـ هل الكمال الإنساني ممكن، أم النقص لازم للإنسان؟ وما هو الكمال إن وجد؟

ـ هل الدين شرط في إدراك الحقيقة، أم هو مساعد؟ ومتى يكون الدين حاجبا للحقيقة؟

نحن نعلم أن أسئلتنا هذه لا يمكن أن ننتظر إجابتها من كل متدين، لأننا نعلم أن صفوة منهم فحسب هم من أهّلهم الله لذلك وأمدهم باستعداد يستدعي ذلك.

وفي كتابنا هذا سنعرض للصلاة وما فيها من أسرار، لعلنا نفتح أمام القارئ أبوابا كان يظنها مغلقة.

والله ولي التوفيق.

الباب الأول

أحكام السّلوك

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل الصلاة قسمة بينه وبين عبده، ليتحقق بها اللقاء، وتصحَّ الوُصلة بعد إجابة النداء. والصلاة والسلام على من قال بالصدق:« وجعلت قرة عيني في الصلاة» ليدل على أنها ظرف يتحقق فيها العبد بالحق، وعلى آله وصحبه من أهل الجمع ومن أهل الفرق.

أما بعد، فإن الصلاة صلة ووصل. وهي قد شرعت عمادا للدين، بعد أن استقر عند العباد شهود الفصل.

فأما أحكام ظاهرها (صورتها)، فهي المعلومة عند المسلمين من أبواب الفقه، ابتداء من الطهارة المشروطة وانتهاء بالسلام المؤذن بالخروج من القيد.

ولما أمر الله عباده بإقامة الصلاة، فإنما نبه إلى أن صورتها لا بد لها من روح يُنفخ فيها فتقوم حية تسبح الله.

وروح الصلاة، هو المعروف عند أهله بالسلوك.

وبما أن السلوك مجهول الأحكام عند العموم، فإنا قد ارتأينا أن نذكر أصولها بالمطابقة مع أحكام الصورة، لعل ذلك ينفع المسترشد في تبيُّن المقصد.

والله المستعان.

الفصل الأول
شروط الصلاة

ا ـ شروط الوجوب:

والمقصود بها في الظاهر تحقق التكليف بها. ويقصدون الإسلام والبلـوغ والعقـل. والحقيقـة أن الإسلام نفسه مكلف به كل إنسان. أما البلوغ فالمقصود منه تأكيد إسلام الفطرة الذي كان ساريا من الولادة إلى حين البلوغ المعهود. فإن اختار المرء عند البلوغ دينا غير الإسلام، فهو يعني أنـه نكص على عقبيه واختار النزول عن مرتبة الإنسان السوي. فمثل هذا قد أغلق على نفسه سـبيل تحقيق الكمال من أول قدم، فلا كلام لنا معه. وهو من حيث البـاطن غيـر بـالغ، لأن اسـتعداده يقصر به عن سلوك الطريق. وأما الإسلام في الباطن، فهو متحقـق للجميـع بـالقهر. وأمـا العقـل، فالمقصود به هنا التمكن من التمييز بين الأحكام، لأن ثمرات السلوك منبنية عليها. وغير العاقل، الذي هو المجذوب ليس عليه سلوك لأنه في حضرة الجمع. وإنما له سلوك عكس الأول، من أجل الصحو، إن كان الله قد كتبه له.

ب ـ شروط الصحة:

وهي المتعلقة بمن حافظ على أصل فطرته عند بلوغـه سـن التكليـف بتحقيـق إسـلامه فـي الظاهر، بما هو معلوم من نطق بالشهادة مع اعتقاد ما يطابقها في الباطن.

والمراد بشروط الصحة هنا، هو ما ينبغي أن يتحقق به المرء حتى يصح دخوله في الصلاة التي هي السلوك؛ وإلا كان من غير المؤهلين له.

1. دخول الوقت: وهو هنا غيبي يتعلق بالإذن الإلهي للعبد في سلوك طريقه، الذي ستظهر آثـاره فيما بعد. ويتعلق أيضا بالصلاة نفسها، التي هي إما صبح أو ظهر أو عصر أو مغرب أو عشاء. فكـل هذه الصلوات تنقسم إلى صلوات ليلية ونهارية. فالليلية هي المغرب والعـشاء والـصبح. والنهاريـة هي الظهر والعصر. والليل هنا هو البطون، كما أن النهار هو الظهور. وهما تجليان إلهيان. والحكم الأصلي لليل لأنه سابق بالمرتبة. فقد قال اللـه تعـالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[1]. لذلك كانت بداية اليوم في الشريعة من الليل. والليل ذاتي، بينما النهار فهو للصفات. غير

[1] . يس: 37.

أن في صلاتي الصبح والمغرب ما يشعر أنهما برزخيتان لكونهما في طرفي الليل والنهار. والصلاة البرزخية هي الصلاة الوسطى المذكورة في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾[2]. وقد اختلف السلف والخلف في أي الصلوات هي. فإذا أخذناها على أنها الصبح، فلكون هذا السلوك يخرج بالسالك من حال البطون إلى الحفاظ على الرسوم ومراعاة الحكمة. فهي وسطى بالنسبة إلى هؤلاء. أما إذا أخذناها على أنها المغرب، فتكون لمن يخرج من فرق الأحكام إلى الغيبة الجذبية، الذين سلوكهم بعكس اتجاه الصنف الأول. أما العشاء فهي لأهل الغيبة المولهين. وأما الظهر فهي لأهل الظاهر الواقفين مع رسوم الشريعة، المحجوبين عن الحقيقة. ولذلك كانت قراءتهم سرية. نعني بسبب بطون الحق عند ظهور الخلق. بخلاف أهل الليل المطلعين على الحقائق الذين قراءتهم جهرية. فإذا فهمت هذا، علمت أن القراءة هي المشاهدة. أما العصر فهي البرزخ الأكبر، لكونها في آخر النهار وقبل حلول الليل. أي أن تجليها نهاري من غير مباشرة للأسباب، وليلي من حيث العلم. فيعطي هذا التجلي ما لا يعطيه سواه. وهو لأهل الكمال. ويعضد ما نذهب إليه ترجيح السنة لصلاة العصر في كونها الصلاة الوسطى، كما ورد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال:« كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق فقال: ملأ الله قبورهم وبيوتهم نارا كما شغلونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس. وهي صلاة العصر.»[3] يظهر بهذا أن الشرع المحمدي قد شمل جميع أنواع السلوك، واستحق أن يكون خاتما.

وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثلا لأمته مع الأمم السابقة فقال:« مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوما يعملون له عملا يوما إلى الليل على أجر معلوم. فعملوا له إلى نصف النهار فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل. فقال لهم لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملا. فأبوا وتركوا واستأجر أجيرين بعدهم. فقال لهما: أكملا بقية يومكما هذا ولكما الذي شرطت لهم من الأجر. فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر، قالا: لك ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه. فقال لهما أكملا بقية عملكما، ما بقي من النهار شيء يسير. فأبيا واستأجر قوما أن يعملوا له بقية يومهم. فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين كليهما. فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور.»[4] وانظر كيف جعل صلى الله عليه وآله وسلم وقت العصر لأمته. واعلم أن له الإحاطة بكل الأوقات صلى الله عليه وآله وسلم. فالأنبياء عليهم السلام، ما هم إلا نوابه في أممهم. لذلك قد اجتمع لأمته صلى الله عليه وآله وسلم ما اجتمع للأمم السابقة، وفضلتهم بما امتازت به عنهم.

---

[2] . البقرة: 238.
[3] . أخرجه البخاري وأحمد وغيرهما. واللفظ للبخاري.
[4] . أخرجه البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه.

وإن كان الترتيب في الحديث يراعي الترتيب الزماني في الدنيا، فإنه يشير إلى أن الأمة المحمدية حصلت ثمرة النهار كله، المتمثلة بالأجر، وليس إلا الكمال.

ويفهم أيضا من الحديث أن الأمة قد انطوى لها في وقت العصر، ما تفرق عند غيرها في باقي الأوقات. فنحن في وقت عصرنا، نصلي الصلوات الخمس.

ولقد أقسم الله بهذا الوقت النبوي الشريف الكامل في سورة مستقلة من القرآن هي سورة العصر. فقال سبحانه: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾[5]. فأقسم سبحانه بالوقت الجامع، على أحوال الإنسان كلها، التي مردها إلى الخسران أو الفوز المعبر عنه بالاستثناء. فكان القَسم في مرتبة المُقسَم عليه من حيث الشمول. وتضمُّنُ هذا الوقت لجميع الأوقات، هو الذي يعطي في هذه الأمة ما ظهر في الأمم السابقة من جمود على الظاهر أو إيغال في الباطن، إلى جانب الاعتدال الخاص بها.

وإذا كان لكل صلاة من حيث معناها سلوك خاص بها، فإن صلاة العصر قد جمعت كل أنواع التجليات في سلوك معتدل قريب سهل المنال. لذلك كثر في أمتنا ـ ولله الحمد ـ أهل الكمال بالمقارنة مع الأمم السابقة التي كان كُمّلها معدودين.

2. طهارة الحدث: بالوضوء والغسل أو التيمم. وتكون من الجنابة والحيض والنفاس. فالجنابة: توهم الفصل، والحيض والنفاس: ظهور صفات النفس التي أصلها الربوبية المركوزة فيها. أما الحدث الأصغر فهو الغفلات الطارئة، التي منشأها الطبيعة.

[5] . العصر: 1 - 3.

والوضوء والغسل يكونان بالماء المطلق الذي هو الإيمان بالوحي. فإن داخل هذا الإيمان عقيدة من العقائد الخاصة المعروفة عند أهل العقائد، فما بقي على طلاقته. بل صار مقيدا بتلك العقيدة التي قد تحجب عن الحق ولو جزئيا. أما الماء المتغير ريحه أو لونه أو طعمه فلا يجزئ. وهو هنا العقائد إن غيرت أصلا من أصول الدين الثابتة، كمن يعتقد التعدد في الألوهية، أو يعتقد خلاف الحق في الرسالة، سواء من جهة المرسَل أو من جهة المرسَل به.

وأما من عجز عن استعمال الماء، فله أن يتيمم. وهو هنا من لا يستطيع أخذ الأحكام والعلوم من الوحي بنفسه، لعجزه أو لعدم سلامة الآلة والوسيلة؛ فله أن يعتمد ما شاع عند أهل الملة وتعارفوا عليه. وهو معنى الصعيد الطيب.

ومما يعد من الحدث الأصغر، القول بعدم القدرة على سلوك الطريق. لا شك أن هذا من آثار شهود العجز عند العبد، ولكنه يُعتبر حدثا لأنه حَجَب عن المسارعة إلى القيام بالأمر الرباني بسلوك الطريق؛ ولانحجاب صاحبه عن التوكل على صاحب القوة والطول سبحانه. وهذا يقع كثيرا لمن يظن أنه على شيء من الأدب. وما لم يتطهر العبد من هذه الصفة وغيرها، فلن يتقرب إلى الله كما أمر. وهو على خطر أن يُسلكَ به سبيل المبعدين.

3. طهارة الخبث: على الطالب أن يكون طاهر البدن، الذي هو الاستعداد المزاجي، قابلا للانخراط في زمرة السالكين. وطهارة الثوب والمكان في الحقيقة تابعة لطهارة البدن وليست مساوية لها في الرتبة. فمن توفر له الاستعداد، وجب أن يكون متحليا بالأخلاق الطيبة، متدثرا برداء الحياء. أما المكان فيقابله في الباطن الحال. فوجب أن يكون المرء على حال حسنة، من توبة لازمة وعمل على مقتضى الشرع. وعمدة الأحوال الحميدة الاضطرار إلى الله.

4. ستر العورة: وهو كتم المعاملة مع الله، فلا يطلع عليها أحد من المخلوقين. وذلك للتحقق بالإخلاص من جهة، ولسد مداخل المشوشين من الشياطين من جهة أخرى.

5. استقبال القبلة: فكما أنه في الظاهر لا بد من استقبال القبلة بالتوجه نحو الكعبة المشرفة التي هي قبلة الأجسام، فكذلك لا بد للقلوب أن تتوجه نحو مظهر الإمداد الذي ليس هو إلا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. ومن لم يتوجه إليه فلا يطمع في الدخول على الله. وفي هذا الإمداد ورد قوله صلى الله عليه وآله وسلم: « والله المعطي وأنا القاسم.»[6].

والحظْ أن الله قد أمر بالتوجه إلى الكعبة رغم قوله عن التوجه في موضع آخر:﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾[7]. وما ذلك إلا لأن المرء لا يحصّل علما بالتوجه إلى الإطلاق في البداية، بل سيزيد حيرة وتيها. وكذلك في الباطن، فإن التوجه لرسول الله صلى

[6] . أخرجه البخاري عن معاوية رضي الله عنه.
[7] . البقرة: 115.

الله عليه وآله وسلم لا يستطيعه كل أحد؛ خصوصا ممن لم يعيشوا في زمنه، وخصوصا في البداية. فوجب التوجه نحو الأنبياء في أزمنتهم عليهم السلام، أو التوجه نحو شيوخ الطريق الذين هم خلفاؤه في التربية. كل هذا بسبب الإطلاق الذي له صلى الله عليه وآله وسلم. أما في زمنه صلى الله عليه وآله وسلم، فإن شخصه رغم ما احتواه من إطلاق، إلا أنه كان مقيدا عند الناظرين المتوجهين إليه. فحصل بذلك للصحابة رضي الله عنهم كل خير.

وكما أن التوجه نحو جدران المحاريب ليس لذواتها، فكذلك التوجه إلى النواب والخلفاء ليس لذواتهم. ولهذا السبب أمر النبيون بأخذ العهد على أتباعهم لينبهوهم إلى هذه الحقيقة. وقد ذكر الله ذلك في قوله تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾[8]. ومع ذلك فإن تفاصيل التوجه لا يتمكن المبتدئ من تحصيلها إلا اعتقادا، وعلى سبيل الإجمال.

6. النية: وهي قصد القلب للسلوك والإقبال عليه ابتغاء وجه الله. ومن كانت نيته غير ذلك فلا يصح منه سلوك لأن الله لا يقبل الشركة. نعم قد يقبل الشيخ من كان على هذه الحال من باب التأليف، في انتظار أن يتنبه إلى الحق. فهذا يكون كالذي يتعلم ما يجب عليه من الدين بالقول قبل أن يباشر الأعمال. أما إقرار كل واحد على ماهو عليه فليس من التربية التي نريد.

7. ترتيب أفعال الصلاة والموالاة: وهو الحرص على عدم الإخلال بمراحل السلوك، كأن يتكلف تقمص الأعلى من المقامات دون التحقق بالأدنى منها. وهذا يحدث كثيرا عند مخالطة المريدين لبعضهم وتنافسهم مع جهلهم. أما الموالاة، فهي الحرص على التتابع في مراحل السلوك من دون انقطاع. والمنقطع مستأنف. وذلك أن مقامات الطريق ينبني بعضها على بعض، فلا يمكن أن يتحقق السير جزئيا. والانقطاع هنا غير الفتور الذي قد يعرض للسالك، بل هو خروج من الطريق بالنية أو بغيرها من الأعمال والأحوال المبطلة.

8. ترك ما ليس من الصلاة: وهو التفرغ للسلوك تفرغا قلبيا تاما. وهذا لا يحصل إلا إذا كانت الهمة عالية والقلب محترقا شوقا. فالمشتاق لا يستريح حتى يصل. وقد كان الأولون يتفرغون ظاهرا وباطنا، وهو ما أدى إلى حصر السلوك في الزهد والتعبد عند من لم يستطع النفاذ إلى ما وراء صورتهما. وقد بقي هذا الانطباع شائعا إلى يومنا هذا.

[8] . آل عمران: 81.

الفصل الثاني
الوضوء

الوضوء في المعنى ـ كما مر ـ هو تحصيل العلم الضروري الذي به يصبح العبد مؤهلا للبدء في السلوك، واعتقاد ما يصح به إسلامه في الظاهر.

ا. فرائض الوضوء:

1. النية: النية هي التوجه العام إلى الله في العمل. فمن فاتته بطل عمله وإن كان صحيح الصورة. ومن هنا نفرق بين أعمال العادة وأعمال العبادة. فأعمال العادة تعطي ثمرتها في الحس بنية وبغيرها. فمثلا إمرار المنشار على الخشبة يقطعها ولو من غير نية. ونحن هنا لا نتحدث عن نتائج أعمال العادة الأخروية، التي تتأثر بالنية، فإنها تصبح تعبدية وقتئذ من الدرجة الثانية، بعد الشعائر.

ومن هنا نعلم أيضا، أن صورة الأعمال التعبدية هي تكثيف لمعان هي حقيقتها. يعلمها من يعلمها من المحققين، ويجهلها من يجهلها من عامة المؤمنين. والصورة الحسية المكثفة هي غير الرمز الذي يقول به بعض الدارسين، بل هي عين المعاني، لكن باعتبار آخر، أي في مستوى آخر.

والنية في الوضوء على التخصيص هي الإقبال على الله الذي يحصل مع التوبة.

2. غسل الوجه: الوجه هو ما به يمتاز الشخص عن غيره، وليس إلا ذاته. والغسل هنا هو أن يعلم يقينا أنه مخلوق لله. فيصبح وجوده مستندا إلى الله، بعد أن كان يرى استقلالية لنفسه.

3. غسل اليدين إلى المرفقين: وهو اعتقاد أن أفعاله، ما صغر منها وما عظم، ما حسن منها وما قبح، كلها مخلوقة لله. وهذا مقتضى قول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[9]. يكون هذا اعتقادا، وإن لم يدرك المرء حقيقة فحواه.

4. مسح الرأس: والمسح هو الظن الموافق للشرع، وهو لا يبلغ درجة العلم اليقيني. ومسح الرأس روحه التواضع لله. واكتُفي في الرأس بالمسح دون الغسل لما فيه من مشقة على العموم.

[9] . الصافات: 96

وذلك أنه ما كل أحد يدرك حقيقة نسبته إلى ربه. فعِلم هذا عزيز. وهـو لا يوافـق حـال الابتـداء، فكيف بمقدماته!

5.غسل الرجلين: وهو اعتقاد السالك أن سيره في الطريق يكون بهداية الله وتوفيقـه، لا بتـدبير نفسه ورويته.

ب.سنن الوضوء:

السنن هي فروع للفرائض. وهي ملحقة بها ومكملة لآدابها. والسر في إلحاق الـسنن بـالفرائض، يعود إلى أن الوجود تولد بين حقيقة إلهية، وحقيقة محمدية. والتمييـز هنـا علمـي (عقلـي) لا وجودي كما قد يظن من لا علم له بالأمر. ومن هذه السنن:

1. التسمية: وهي خارجة عن أعمال الوضوء من حيث ما هي غسل ومسح، لكن أثرها عـام فـي جميعها. فهي فاتحة لها، اقتداء بالله في افتتاح كلامه الوجودي بها. وبالبسملة تنفخ الـروح فـي الأعمال.

2. غسل الكفين: وهو ملحق بغسل اليدين إلى المرفقين في الفرائض. وهو مقدمة له من حيـث المعنى. وإن كان غسل اليدين في الفرائض، يحمل بذرة التوكل ثم بذرة مشاهدة الأفعال، فغسل اليدين في السنن هو التبري من الحول والقوة، الذي هو كالشرط له.

3. المضمضة: وهي ملحقة بغسل الوجه من الفرائض. فمن أراد أن يبلغ طهارة ذاته المعنويـة، لا بد له من مراقبة فمه، وسياسته بما يوافق الشرع؛ وذلك في أمرين: المأكل، والكـلام. أي مـا يـرِد إلى الذات وما يصدر عنها.

4. الاستنشاق: وهو أيضا من توابع غسل الوجه، وروحه حسن الظن بعباد الله. فـإن سـوء الظـن يعود بالظلمة على صاحبه، فلا تطهر ذاته.

5. الاستنثار: وهو في الحقيقة متمم للاستنشاق. فهما معا عمل واحـد. وهـو ـ أي الاسـتنثار ـ التوبة من سوء الظن.

6. مسح الأذنين: والمسح غير الغسل كما أسلفنا. وهو ظن أن الوحي القرآني كلام الله، من غير أن يتكلف فهمه على حقيقته كله، لأن ذلك فوق طوره. والسمع عنده سـمع أحكـام ومعـاني، لا سمع تحقيق. فمسح ظاهر الأذن متعلق بالألفاظ، ومسح باطنها متعلق بالمعاني.

7. تخليل الأصابع: وهو ملحق بغسل اليدين والرجلين. وهو تحقيـق المراقبـة فـي التوكـل فـي الأفعال وعند نزول القضاء.

8. تخليل اللحية الكثة: وروحه خرق جدار الطبيعة المنصوب على الذات، لمن كانت طبيعته كثيفة. أما من كانت تغلب عليه الروحانية فلا يحتاج إلى كثير من ذلك.

9. تقديم الميامن: وهو تغليب مراعاة أحكام الوجود عنده على أحكام العدم؛ لأن ذلك يقوده إلى الله. أما إن عكس فإنه سيعود به إلى نفسه، فلا يفلح.

10. الغسل ثلاثا: وهو يحمل بذرة ظهور ثمرات الأعمال في مراتب التوحيد الثلاث. فيكمل توحيده ويتم إيمانه ويقينه، عند نهايته إن شاء الله.

11. الدلك والموالاة: الدلك هو العمل بما يعلم، حتى لا يكون علمه وبالا عليه. والموالاة، هي اعتقاده المتابعة في مراحل السير من دون انقطاع؛ لأن المقصود من السير الوصول لا عين السير. وقد مر الكلام عليه.

12. تقليل الماء: وهو هنا تعلم الضروري من العلوم التي تقوم بها العبادات. أما الاستكثار من تفاريع الأحكام، فإنه يعوق عن السير، ويشغل المرء بغير واجب الوقت. ومعلوم أن القوم يحرصون على أوقاتهم حرص التاجر على رأسماله.

ج. نواقض الوضوء:

ومنها:

1. ما يخرج من السبيلين: وهو ظهور صفات النفس، على مستوى الفكر، أو على مستوى الفعل. وهذا إن لم يستأنف السالك بعده ويتوب، فإنه ينقطع. وذلك أن العقول لا تصل إلى الله بهجومها عليه، وإنما بإذنه سبحانه. وهذا هو معنى العزة الإلهية.

2. النوم الثقيل: وهو الغفلة المستحكمة، لأنها مخالفة لأصل السلوك. أما الغفلة العارضة فلا تبطل السير. والسالك مطلوب منه أن يكون يقظا متنبها حتى لا يقع في المهالك.

الفصل الثالث
الصلاة

الصلاة هي السلوك. والسلوك سلوكان: سلوك إلى الله ، يكون منطلقه من النفس، وسلوك في الله وهو للمتحققين بالحق. وهاتان هما ركعتا الصلاة في أصلها قبل أن يزاد في صلاة الحَضَر. وإبقاء صلاة السَّفر على أصلها، هو بسبب حقيقة السفر الذي هو السلوك نفسه. فالمطابقة بينهما تكون تامة.

ا. أركانها:

1. النية: وهي ابتغاء وجه الله منها. وقد سبق الكلام على النية.

2. تكبيرة الإحرام: ولفظها: الله أكبر. وهو التوجه إلى الله من كونه اسما للذات وجامعا للأسماء، من الاسم الخاص الحاكم على المصلي. وشرطها القيام عند الاستطاعة. وهو نهوض الهمة إلى طلب الله. والاستطاعة تعود إلى الاستعداد. فمن لم يبلغ به استعداده طلب الله ـ وهو المريض في الاصطلاح ـ كبّر على الحالة التي يستطيع، في انتظار أن يكمل استعداده بالتربية فيقوم.

3. قراءة الفاتحة: التي هي الحقيقة المحمدية. فهذا إذْن خاص يتوسل فيه السالك بالحقيقة المحمدية إلى معرفة الله. وبدون هذه الواسطة لا يصح سلوك من العبد فضلا عن الوصول. وقد خُص بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دون غيره من الأنبياء، لأنه الواسطة العظمى بين الخلق ـ والأنبياء عليهم السلام منهم ـ والحق.

وقراءة الفاتحة سرها سار في كل الصلاة. ولكن أول مرتبة يتحقق بها السالك حال قيامه، مرتبة توحيد الأفعال. وتتحقق له بمشاهدة الفعل لله سبحانه، وإن كان يُنسب إلى المخلوق. وهذه المرتبة هي أولى مراتب التوحيد الخاص.

أما أصحاب التوحيد العام ـ ونعني به توحيد المقلدين ـ فهم إما لا زالوا لم يدخلوا في الصلاة، أو لا زالوا عند استفتاحها بحيث لم يقرأوا الفاتحة بعد. ولولا حصر قراءة الفاتحة فيمن تحققت له الهداية بمقتضى قوله تعالى:﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾، لقلنا بقراءة كل العباد لها، بسبب عدم خروج أحد عن حكمها سواء كان مهتديا أم ضالا. ولكنْ نوافق الحق فيما أعلنه في ظاهر شرعه.

4. الركوع: النزول في الظاهر ارتفاع في الباطن. هذا الارتفاع هو نفسه العروج. والعروج يكون إلى سماء الصفات، التي ترجع إلى السبع الأمهات. وفي هذه المرتبة، يشاهد السالك الوجود كله تجليا لصفات الحق. ويضمحل عنده شهود الخلق. فيصير لا يرى إلا أفعال الحق وصفاته. وهذه هي مدلولات الأسماء على التحقيق. والأسماء كما هو معلوم عند أهله إما أسماء جلال أو أسماء جمال أو أسماء كمال. لذلك، من لم تحصل له هذه المرتبة، فلا علم له بالأسماء. وكل علم بها قبل هذه المرتبة هو من قبيل الظن ومن قبيل المقاربة اللغوية لتلك الأسماء فحسب.

5.الرفع من الركوع: وهو البقاء على علو الهمة في الطلب مع المحافظة على التذلل عند شهود العظمة، حتى يتمكن المصلي من متابعة السير. ومعلوم أن البقاء مع أثر شهود العظمة وحده، يمنع من التطلع إلى مواصلة السير. من هنا يُعلم أن كل عمل شرعي ينقطع العبد معه عن طلب ربه، فهو مخالف لحقيقة حكمه. وهذا أصل رئيس من أصول السير.

6. السجود: وهو عودة المصلي إلى عدمه الأصلي حكما. وهو من قبيل إعطاء كل ذي حق حقه. فحق الله الوجود وحق العبد العدم. من أجل هذا المعنى جاء في السنة التنبيه إلى مكانة السجود في القرب، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد. فأكثروا الدعاء.»[10]. وعند السجود تحصل معرفة الذات. والمعرفة المقصودة هنا هي على التحقيق معرفة أسماء الذات كالاسم الله أو الاسم الحي أو الاسم الحق أو الأحد أو الواحد أو النور وهكذا...أما معرفة الذات الحق فهي غيب. ومرجعها إلى التحقق الذي هو الذوق في أعلى مراتبه.

7. الجلوس بين السجدتين: وهو للتمكين. فحكم العدم وحكم الوجود حكمان متاضادان محلهما ذات واحدة. فمن لم يتمكن من صرف وجهيهما على مقتضى الحقيقة زاغ عن سواء السبيل، ولم يكن من أصحاب الصراط المستقيم.

8. السجدة الثانية: لتخليص المقام من شوائب التخليط. وإتيانها بعد الجلوس هو ما يؤهل السالك لهذا التخليص.

9. الجلوس الأخير: هو جلوس المعرفة التامة. وترجمتها ما ورد في التشهد المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو: « التحيات لله، والصلوات والطيبات. السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.»[11]

فلفظ :«التحيات لله، والصلوات والطيبات» يؤذن بتحقق المعرفة بالله، ودخول الحضرة به سبحانه، بعد تخليف النفس. وهذا المقام يحصل بعد تجاوز القرب المتحقق في السجود. ومعنى

[10] . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
[11] . رواه أحمد والنسائي عن ابن مسعود.

التحيات لله يتضمن معنى التحيات من الله، وكذلك الصلوات والطيبات. وهي كلها تجليات من الذات وإليها. فهي صلوات وهي طيبات من كونها مدلولات الأسماء الحسنى والصفات العلى.

أما لفظ: « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » فيفيد معرفة الحقيقة المحمدية، ومعرفة نسبتها إلى الألوهية. والنبوة المقصودة هنا هي النبوة الأصلية غير المتعددة والتي هي أصل النبوات. وليست تلك إلا الحقيقة المحمدية. والسلام عليها بصيغة الخطاب، هو مشاهدة سلامتها من أحكام العدم في الوجه المقابل لحضرة الألوهية الذي هو وجه الاستمداد؛ ومشاهدة سلامتها في وجه الإمداد من العدم وجودا لا حكما. وذكر لفظ الرحمة يفيد أن الحقيقة المحمدية هي حضرة الرحمة الجامعة للرحمات الحقية والرحمات الخلقية. وهذا حقا هو معنى قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾[12]. ثم ورود لفظ البركات هو يدل على دوام الاستمداد وزيادته، الذي يعطي دوام الإمداد وزيادته أبدا. فهذه الحضرة هي الواسطة بين الله والعالم. والكلام هنا يطول، وحسبنا هذا حتى لا نصدم العقول المقلدة.

أما قوله: « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» فهو للمتحققين وحدهم، الذين يعتبَرون مصلين في الحقيقة لا بالتشبه. ويكون ذلك بتجلي الحق في نفس المصلي. والعطف بذكر عباد الله الصالحين، يتضمن معرفة ذلك لكل متحقق عبر الزمان. فهم أهل الله وخاصته. وهذه المراتب الثلاثة: مرتبة الحق، ومرتبة الحقيقة المحمدية ومرتبة المتحقق، هي أصول المراتب الوجودية كلها.

10. السلام: السلام مشير إلى التحقق الذي هو السلامة من آثار أحكام العدم. وهو مدلول الالتفات إلى اليمين، أثناء التلفظ به. وهذه التسليمة هي الركن.

11. الطمأنينة: وذلك لأن السير إلى الله حُكمي وليس ظرفيا، حتى يقتضي من العبد مسارعة تؤدي إلى الاضطراب.

12. ترتيب الأركان: وذلك لأن السلوك بعضه متوقف على بعض. فلا يجوز الانتقال من مرحلة إلى أخرى حتى يستكمل شروط السابقة منهما.

ب . سننها:

[12] . الأنبياء: 107.

السنن فروع عن الأركان كما مر. وازدواجية الفرائض والسنن في أعمال الشعائر تعود إلى كـون الاستمداد مزدوجا في مظهره. فهو إلهي أولا ونبوي ثانيا. وهذه الحقيقة حكمت على كل مستمد مما دون الحقيقة المحمدية في المرتبة. ومن هذه السنن:

1. رفع اليدين عند تكبيرة الإحرام: بما أن تكبيرة الإحرام تعطي الرجوع من الأسماء الفرعية إلى الاسم الجامع، فإن الحال الموافق لها هو الخروج من القيد إلى الإطلاق الاسمي الذي يشير إليـه رفع اليدين مع فتح الكفين. ومنه استحباب رفع اليدين أيضا عند الركوع والرفع منه وعند القيام من التشهد الأول.

2. وضع اليد اليمنى على اليسرى، أو السدل حال القيام: أما وضع اليد اليمنى على اليسرى فهو تغليب أحكام الوجود على أحكام العدم من الحقيقة الإنسانية في مرتبة الأفعال، لأن العـدم هـو أصل السوء. ويكون هذا التغليب بمجاهدة النفس. وأما السدل الذي هو إرسال اليدين معـا، فهـو السير بين حكمي العدم والوجود، وهو أتم في العلم. فهو للبرازخ.

3. دعاء الاستفتاح: وله ثلاث مراتب بحسب المقام الداعي للـسالك. فمـن كانـت غايتـه توحيـد الأفعال، فيناسبه ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: « اللهـم باعـد بينـي وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب. اللهم نقنـي مـن خطايـاي كمـا ينقـى الثـوب الأبيض من الدنس. اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد.»[13] والخطايا هنا هي الأفعـال التي ينسبها العبد إلى نفسه وإن كانت حسنات. والمباعدة بين العبد وخطاياه، وتنقيتـه منهـا، وغسلها عنه هو بأن يكشف الله عنه الحجاب، ويشاهد فعله سبحانه.

أما من كانت غايته ستكون توحيد الصفات، فيناسبه ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك، ولا إله غيرك.»[14]

أما من كان مآله توحيد الذات، فيناسبه ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسـلم فـي قوله: « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفـا مـسلما ومـا أنـا مـن المـشركين. إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له. وبذلك أمرت وأنا من المسلمين.»

والله تعالى يوفق كل عبد إلى ما يناسبه من دعاء. فإن لم ينطـق بـه بلـسانه، فقلبـه نـاطق لا محالة، علم ذلك أم لم يعلمه.

4. الاستعاذة والإسرار بها: الاستعاذة هي طلب الخروج من تحكم الشيطان، حتى لا يفسد عليه صلاته. والإسرار بها مطلوب لأن الشيطان أجنبي في حضرة الحـق. ولـولا أن الـسالك فـي بدايـة السلوك، لمنع كليا من ذكر الشيطان. فذكره مرتبط بحال الشرك، إما الخفي منه أو الجلي. ونعني

[13] . رواه الجماعة إلا الترمذي.
[14] . رواه أبو داود.

بالذكر هنا الذكر القلبي لا اللساني. فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يذكر الشيطان في الاستعاذة وغيرها، ولكن قلبه الشريف معصوم من ذكر غير الله. فتفطن.

5. التأمين: لكل مصل سواء كان إماما أو مأموما أو فذا. ويكون بعد قراءة الفاتحة. يسر به في القراءة السرية ويجهر به في الجهرية. وهو لطلب الاستجابة من الله للدعاء الوارد في الفاتحة. وحقيقته موافقة الحال لما جاء في الفاتحة. وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيه: « إذا أمّن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه»[15].وموافقة المُوافِق ـ الذين هم الملائكة ـ موافقة. فلا يغيبن عنك المعنى.

6. قراءة ما تيسر من القرآن بعد الفاتحة: وهي بما يناسب الحال لمن كان يحفظ القرآن.

7. تكبيرات الانتقال: لحفظ توجه القلب من تأثيرات مختلف الأحوال، وعدم البقاء مع الأسماء الفرعية لاحتمال التقابل المشتت للهمة.

8. الجهر في محله والسر في محله: وهو يدخل في علم المَواطن. أما المرأة فلا تجهر. والمرأة هنا هو كل من لم تثبت قدمه في الطريق، ومن لم يجرب جلالها ويتمرس به. فعلى من يكون هذا حاله أن لا يتكلم في علوم القوم تحصنا من الابتلاء الذي يصاحب ادعاء الرجولة.

9. هيئة الركوع وهيئة السجود: وهو موافقة أحوال السالك لأحوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم. لا يخرج عنها بتقصير أو مغالاة. وهذا عزيز. وكل من خرج عن سنة الأحوال، فقد أخل بهيئة الصلاة. والإخلال نقص في الصلاة قل أو كثر.

10. التسبيح في الركوع والسجود: وهو التنزيه. ويقع عند مشاهدة الصفات، فيعبر عنه بـ « سبحان ربي العظيم»؛ ويقع عند الاضمحلال والهوي في العدم، فيعبر عنه بـ « سبحان ربي الأعلى»، لأن العلو للوجود.

11. صفة الجلوس بين السجدتين وعند التشهد: وذلك بأن يفرش المصلي رجله اليسرى ويجلس عليها، وينصب اليمنى. فرش الرجل اليسرى هو التمكن من مداخله العدمية، التي هي أبواب السوء؛ ونصب الرجل اليمنى هو التحقق بالوجود الحق، وقيامه به تحققا لا تخلقا.

12. الدعاء بين السجدتين: ولفظه: « اللهم اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني». وهو طلب الاستقامة في السجود، من أجل عدم الإخلال بالرسوم؛ لأن العبد بنفسه لا يتمكن من إيفاء المواطن حقها. والمغفرة هي تولي هذا الأمر من الله عن عبده. والرحمة هي بلوغ المطلوب، والمعافاة هي التحصين من النقص أو من تأثير الشيطان، لأن لكل مقام شيطانا كما يقال. والرزق هو الإمداد بما يُتوصل به إلى المراد.

[15] . أخرجه البخاري في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

13. صفة الجلوس للتشهد: وهي للرسوخ في الحقائق. ورفع السبابة عند قول « إلا الله» هو للتحقق بالواحدية. وقبض باقي الأصابع إشارة إلى انطواء العالم فيه. فالمصلي المحقق نائب عن العالم في الصلاة، ومصل عن نفسه؛ لأن صلاة العالم مندرجة في صلاته. وعلى هذه الصفة تكون صلاة القطب.

14. الصلاة على النبي في التشهد الأخير: ولفظها: « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم»: وهو تعريف في قالب سؤال. ومعناه اجعل خلفاء محمد في التحقق بك كذرية إبراهيم من الأنبياء وإن لم يبلغوا مرتبة نبوة التشريع بسبب انغلاق بابها بالبعثة المحمدية. وهذه المرتبة المسؤولة، هي ما عبر عنها بعض أهل الله بنبوة التعريف، تمييزا لها عن النبوة المعروفة. « وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم»: والبركة الزيادة والنمو. « في العالمين »: تخصيص من بين العالمين. « إنك حميد مجيد»: فصلاتك عليهم، ومباركتك، هي تجل منك إليك في مظاهرهم.

15. التسليمة الثانية: وهي من الحقيقة المحمدية، لأنها دائما في المرتبة الثانية من الحق.

والسالك إذا وصل إلى هذه المرحلة يسمى واصلا. أما إذا كان مقامه أحد الأركان السابقة فينسب إلى ما وصل إليه. لذلك ورد في القرآن الكريم ذكر هيئات مخصوصة من الصلاة دون غيرها. فقد قال الله تعالى مثلا: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢ ﴾ [16]، فخص الراكعين الساجدين دون غيرهم. وقال سبحانه أيضا: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ ﴾ [17]، فخص صفة الركوع دون غيرها. وقال أيضا:﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي ﴾ [18]. فخص القيام دون غيره. أما من أتم الصلاة فهم من عبر عنهم بالمقيمي الصلاة. فقال جل من قائل: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [19]، فعم. وقال أيضا فيمَن انخرط في السلوك فعلا:﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١ ﴾ [20]. وقال أيضا: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ ﴾ [21].

---

[16] . التوبة: 112.
[17] . المائدة: 55.
[18] . آل عمرا: 39.
[19] . النساء: 162.
[20] . الحج: 41.
[21] . الأنفال: 3.

كل ما مر إنما هو خاص بالسلوك الأول. أما السلوك الثاني، فأحكامـه مخالفـة لـسابقه ، بـسبب ذهاب الازدواجية التي يعطيها الظل. فحركة المصلي فيه حركة واحدة حقية.

الفصل الرابع
السلوك الثاني

سمي سلوكا ثانيا، لأنه يأتي بعد السلوك الأول. وإن كان السلوك الأول بدايته من النفس ونهايته الحق، فإن السلوك الثاني بدايته الحق(ونعني به هنا أولى مراتب التحقق)، من غير بلوغ نهاية، لأنه لا نهاية له.

ا. أركانه:

1. تكبيرة القيام: وهي قول الحق على لسان العبد " الله أكبر". وهي ما يُصطلح عليه الدعوة إلى النفس، إما بالإشارة أو بالتصريح. والنفس هنا ليست بالمعنى المتداول في السلوك الأول، وإنما هي النفس المضافة إلى الله، كما في قوله سبحانه على لسان عيسى عليه السلام: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ ﴾[22]. غير أن الغالب في هذه الدعوة هو الإشارة وليس التصريح، لأن العبارة لا تُحمل دائما على وجهها، بسبب عدم إلف الأسماع لها. ويراعي من كان هذا مقامه مراتب الناس فلا يكلمهم إلا بما يطيقون، شفقة عليهم وحكمة إلهية.

2. القيام: وهو هنا القيومية. وليس ذلك إلا تصريف الأسماء على مقتضياتها، وتربية العالم بها. وهذا هو معنى الخلافة الإلهية الوارد بها صريح القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ ﴾[23]. فالخلافة الأولى عن الحقيقة المحمدية كانت لآدم عليه السلام. وهي منذ ذلك الوقت تُتوارث من خليفة إلى خليفة إلى قيام الساعة. والخليفة في الزمان يسمونه آدم الزمان.

هذه الخلافة الباطنية هي الشرط في الخلافة الظاهرة. لذلك نسمي حكام المسلمين الذين توفرت فيهم: الخلفاء، وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم. أما إذا

[22] . المائدة: 116.
[23] . البقرة: 30.

افترقت هذه الخلافة الباطنة عن الحكم، فيكون الحكم وقتها ملكا، بغض النظر عن كونه حكما بشرع الله أم بغيره. وإذا قلنا عن الحاكم الموافق للشرع، المنصب بالشورى، غير الحائز هذه الخلافة الباطنية، خليفة، فإنما نقصرها على الظاهر لا الحقيقة، من باب التجوز.

والخلافة التي تكلمنا عنها هي الخلافة الكبرى، التي ليس لها إلا واحد في كل زمان؛ أما الخلافة في مراتبها الدنيا، فتشمل الدال على الله به في جماعته. وهذا في الحقيقة خليفة الخليفة. ولكن لا مشاحة في إطلاق الألفاظ إذا عُلم المدلول.

3. قراءة الفاتحة: القراءة هنا تحقق. فيكون المصلي مظهرا للحقيقة المحمدية في الوجود عامة أو في قومه خاصة، بحسب مرتبته عند الله. ومن هنا يكون له الإمداد للعباد. وسنفرد للفاتحة بابا خاصا إن شاء الله في الكتاب، لعلو شأنها واستناد الصلاة كلها إليها في الحكم.

4. الركوع: هو تدلي الله للعباد حتى يلتقيهم في ترقيهم إليه. وهذه هي المنازلات التي يتحدث عنها أهل الله رضي الله عن جميعهم. وهذا المعنى هو ما ذكر في الحديث القدسي:« من تقرب إلي شبرا، تقربت إليه ذراعا. ومن تقرب إلي ذراعا، تقربت إليه باعا. وإذا أقبل إلي يمشي، أقبلت إليه أهرول. »[24]

5. الرفع منه: الرفع من الركوع هنا هو بقاء حكم سلطان العزة الملازم للحضرة، حتى لا يتجرأ عليها من لم يتأدب بآدابها.

وقول المصلي هنا: « سمع الله لمن حمده» هو قول الحق بعد سمعه لعباده الذين يثنون عليه بصفاته. وصدى هذا الحمد هو قول العباد بلسان الحال في الزمن الثاني:« ربنا ولك الحمد». فالسمع الإلهي الأول في مرتبة العلم، والحمد الثاني في مرتبة الوجود الحسي. والسمع الأول لما هو في العبد بالقوة، والحمد الثاني لما هو من العبد بالفعل. فانظر ما المقابل لكل سمع وكل حمد.

6. السجود: هو تجلي الحق في الصور العدمية سواء كانت متخيلة أم حسية. وهو المعبر عنه في الشرع بنزوله سبحانه في الثلث الآخر من الليل. فقد جاء في الحديث الشريف: « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟»[25]. وهذه الليلة ثلاثة أثلاث: ثلث قيام، وثلث ركوع، وثلث سجود. وليس ذلك إلا للنشأة الآدمية. وشدة قرب الله من العبد هنا في مقابل شدة قرب العبد من الله في سجوده في السلوك الأول. فانظر هذا النظام البديع!

---

[24] . من حديث أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[25] . متفق عليه.

وعلى هذا فافهم باقي الأركان والسنن فإننا لن نتطرق إليها بالتفصيل تجنبا للإطالـة، خـصوصا وأن غير أهلها لن ينتفعوا بذكرها. وأما من كان من المستشرفين، فتنفعه الإشارات التي قدّمناها.

والتحقق الذي يحصل للعبد هنا، هو داخل في نطاق معرفة الحق نفسه. وهو ما يشير إليه الحق على لسان أحد المتحققين إذ يقول: « كنت كنـزا مخفيـا فأحببـت أن أُعـرَف، فخلقـت الخلـق ليعرفوني، فبي عرفوني». وليس المقصود من هـذه المعرفـة إلا الظهـور فـي المراتـب وتـصريف الأسماء.

الفصل الخامس
العروج

الصلاة صلة بين العبد وربه، فهي بين مقام الربوبية في الأعلى، ومقام العبودية من الأسفل. وصعود العبد في معراج الصلاة إلى ربه هو العروج.

وكما أن الصلاة بين وضعيات ثلاث رئيسة، فكذلك كان العروج بين إسراء أرضي (وهو ما يقابل القيام في السلوك الأول، الذي هو من مرتبة الأفعال) وعروج سماوي (وهو ما يقابل الركوع من السلوك الأول. وهو من مرتبة الصفات) وعروج فوق/سماوي (وهو المقابل للسجود. وهو من مرتبة الذات). فالمرتبة الأولى مرتبة نفس، والثانية مرتبة روح، والثالثة مرتبة سر. وهذه المرتبة الأخيرة، مسكوت عنها في حديث مراتب الدين المروي عن سيدنا عمر رضي الله عنه، والذي مفاده أن الدين إسلام وإيمان وإحسان. فمرتبة الذات فوق الإحسان المذكور. وامتنع الشارع عن ذكرها لغموض كنهها وعلو شأنها.

وعلى هذا فالعروج هو تحقيق الصلاة في صورةٍ تَبْسُط حقائقها للعيان. والانتقال من عالم إلى عالم فيه، هو حُكمي لا حسي. نعني الأصل فيه. فالعبد إذا عرج إلى ربه فلا يطلب منه أن ينتقل من مكانه بجسمه وإنما بمكانته فحسب. وحكم المكانة ينسحب على الجسم إذا تحققت. ومن هنا يقال عبد متروحن، إذا حقق مرتبة الروح بعد مرتبتي القلب والنفس. وإذا اكتسب الجسم حكم الروح صارت له خاصياتها. ومن هنا كان بعض الأولياء يطيرون بأجسامهم إلى الأماكن البعيدة، وكانوا يخترقون بها الجدر، ويغوصون بها في البحار دون مشقة.

وأكمل ما كان من هذا الأمر تحققا، لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عروجه الشريف، وهو أكمل الناس جسما وروحا بلا ريب.

لكن لا بد أن نذكر أن المواطن لها الحكم على الصور. فمثلا الصور الحسية الأرضية لا بد أن تكون أجساما. ومن هنا ظهر جبريل عليه السلام في صورة دحية الكلبي رضي الله عنه. أما إذا كان الموطن هو السماء فلا بد من أن تكون الصورة روحا؛ وأما في الحضرة الإلهية فلا بد أن تكون سرا. إذا عُرف هذا بطل سبب الخلاف الواقع بين من يقول أن العروج كان بالروح فحسب، ومن يقول كان بالروح والجسد. فلو علم الفريقان حكم المواطن، لارتاحا من اللجاج واجتمعا على قول واحد. ولكن حكمة الله اقتضت الخلاف. وهكذا في كل أمر مختَلف فيه، لو تتبعت، ستجد

الاختلاف مبدأه من المكانة التي للناظرين، فإن توحدت المكانة، رفع الخلاف. وهذا سر من الأسرار.

إذا تقرر ما سبق، علمنا أن العروج سنة تتحقق للسالكين. يقطعون فيه مقامات النفس والروح وصولا إلى مقام السر. لذلك فإن الحديث الذي توقف فيه بعض العلماء هو صحيح من حيث الكشف. ونعني به الذي جاء فيه: « لما أسري بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، إلى السماء السابعة، قال له جبريل: رويدا، فإن ربك يصلي. قال: وهو يصلي ؟ قال: نعم. قال: ومايقول؟ قال: يقول: سبوح قدوس، رب الملائكة والروح، سبقت رحمتي غضبي »[26]. مرادنا قوله إن ربك يصلي. فالعبد يصلي والرب يصلي. ولولا أن كلاهما يصلي ما تحققت الصلاة التي هي الوصلة.

وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾[27]. فإخراج الله عبده من الظلمات إلى النور، هو نفسه تقريبه والعروج به في المراقي. فالعبد يصلي لربه، والرب يصلي على عبده. أو اعكس من حيث الحقيقة.

هذه الحركة الحُكمية إذا كانت من الله فهي نزول، وإذا كانت من العبد كانت عروجا (أي صعودا). وحيثما وقع اللقاء في أثناء الطريق فهي المنازل. وأما إذا عرج الله بعبده إلى حضرته المعبر عنها بقاب قوسين أو أدنى فهو الوصول في عرف أهل الطريق.

والعروج الذي يحدث للسالكين قد يختلف في بعض تفاصيله عن العروج النبوي. وذلك بسبب خصوصية كل أحد. فعروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم كلي، وعروج ورثته جزئي. نقول هذا حتى يفهم السالكون عدم المطابقة من أين كان.

أما اعتقاد أن العروج من خصائص النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي لا تتعداه إلى ورثته، فهو جهل بحقيقة الأمر. ولو أن الفقهاء اطلعوا على سِيَر أهل الله لوجدوا كثيرا من هذا مطويا في عباراتهم، إما تصريحا أو تلميحا، بحسب ما كان يسمح به الوقت.

وفرض الصلاة ليلة العروج في حضرة الله، كان لهذه المناسبة. ومن أجل هذا أيضا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:« وجعلت قرة عيني في الصلاة.»[28]. فهل كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تقر عينه بغير الله؟! لا والله!

ثم إن هناك وجها آخر لقوله إن ربك يصلي: وهو أن السالك المتحقق يجد عند انكشاف الغطاء أن صلاته كانت هي نفسها صلاة ربه ولم يكن يعلم. وهذا من أعجب الأمر: أن يكون الظاعن عين

---

[26] . الفوائد المجموعة للشوكاني وقال فيه: رجاله ثقات لكنه موقوف على عطاء فلعله سمعه ممن لا يوثق به وفي إسناده محمد بن يحيى الحفار. قال الذهبي لا ندري من ذا وأورد له هذا الحديث، وقال هذا منكر. قال في اللآلىء لكن رأيت له طريقا أخرى. وقال محمد بن نصر في كتاب الصلاة وذكر نحوه، وكذلك ذكر نحوه عبد الرزاق في مصنفه كلاهما عن ابن جريج عن عطاء. قال بلغني، وفيها أن الله سبحانه يقول سبوح قدوس رب الملائكة والروح سبقت رحمتي غضبي.

[27] . الأحزاب: 43.

[28] . من حديث رواه النسائي والحاكم عن أنس رضي الله عنه، ورواه البيهقي في سننه.

المُرتحَل إليه. ولا يُعرَف هذا إلا ذوقا، بخلاف الوجه الأول الـذي يمكـن أن يُتـصور عقـلا. ولعلنـا نبسط الكلام عن صلاة الحق في الباب الثاني عند تناول مراتب المصلين، إن شاء الله تعالى.

الفصل السادس
مبطلات الصلاة

مبطلات الصلاة هي الأمور التي تقطع السلوك المشروع. ومنها:

1. الأكل أو الشرب: وهو الاشتغال بتدبير البدن ومباشرة الأسباب اشتغالا يدخل بالعبد في دائرة الغافلين؛ أما إن كان هذا الاشتغال قليلا على قدر الضرورة، يرجع فيه العبد إلى ربه عن قرب، فلا شيء عليه.

2. القهقهة: وهو التلبس بحال المستهزئين واللاهين. وذلك لأن السلوك أمر خطبه جليل، وأثره على مصير العبد عظيم. فمن استهان به انعزل عنه.

3. الكلام: فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس. إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن.»[29] كلام الناس هو مقولاتهم في الألوهية، كما هو شأن الفلاسفة والمتكلمين. والإقبال على الله بما ولدته أفكار المخلوقين، هو قاطع عن تحقيق السلوك، وذلك لأن العبد عليه أن يكون مشتغلا فيه إما بالتسبيح والتكبير اللذَيْن هما نتيجة الوارد الرباني، أو بقراءة القرآن التي هي معرفة الحق في تجلياته، والتي هي ثمرة التوحيد الخاص في مراتبه الثلاث المعروفة.

أما الأحوال التي تعتري المصلي من بكاء وقشعريرة وغيرهما، فإنها مرغوبة لكونها من نتائج أعمال الصلاة، مالم يقصدها السالك لذاتها؛ فإنها تصبح عندئذ من الحجب التي ينبغي التخلص منها.

وقد جاء عن عبد الله ابن الشحير أنه قال: « رأيت رسول الله يصلي وفي صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء»[30]. فهذا وأمثاله من سنة الأحوال التي يغفل عنها كثير من الناس. وذلك لأن السالك يتعرض باطنه لأحوال مختلفة يرشح منها بعضها على ظاهره. ومن كان جامد الظاهر أبدا، فهو جامد الباطن. ومن كان جامد الباطن فهو علامة على عدم سيره.

4. العمل الكثير من غير جنس الصلاة: وذلك أن السالك ينبغي أن تكون حركته عن أمر إلهي. هذا هو ما يليق به وما يوافق حاله. أما إذا كانت حركته نفسية: فإن قَلَّت، وجبت عليه التوبة والرجوع السريع؛ وإن كثرت قُطع بسببها عن السلوك. أما إن كانت الحركة ضرورية كفتح الباب

[29] . رواه أحمد ومسلم وأبو داود.
[30] . رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

إن كان وحده في البيت، أو إمساك صبي مخافة أن يصيبه أذى فلا شيء عليه بشرط أن لا ينحرف عن القبلة. وقد سبق الكلام عن القبلة. وفتح الباب في المعنى هو الكلام في علوم الطريق، إن كان وحده في البيت: أي إن لم يكن بحضور الشيخ. فإن كان الشيخ حاضرا، فلا يتكلم إلا بإذنه. وإمساك صبي مخافة أن يصيبه أذى: هو في المعنى التصدي لهداية من هو أقل منه في المقام، إن تحقق عنده أنه سيتأذى في سلوكه. وهو في هذا نائب عن الشيخ للضرورة. ولا يجوز له أن يتمادى في ذلك إلا بإذن خاص، لأن المشتغل بغيره يفوته الاشتغال بنفسه، فيتخلف بقدر ذلك.

5. اختلال شرط من شروط الصلاة أو ترك ركن منها: كأن تنتقض طهارته أو ينصرف عن القبلة، أو يترك ركوعا أو سجودا. فالشروط، فلأنها تحكم على السلوك حكما شاملا، وأما الأركان فلأن بعضها ينبني على بعض.

وعلى كل حال من أراد أن يكون سلوكه سليما، فليخرج عن حكم العادات، ويجهد أن تكون أعماله كلها عبادات: إما بذاتها كما هي الشعائر المعلومة، أو بالنية إن كانت مما تتطرق إليها العادة. هذا هو الأصل الجامع.

الفصل السابع
مكروهات الصلاة

المكروهات هي ما يُنقص من كمال العمل دون أن يبطله. ومن مكروهات الصلاة التي هي السلوك:

1. العبث القليل: وهو مناف لما يتطلبه السلوك من حضور دائم ومراقبة، لأنه لا يقع إلا عن سهو أو غفلة.

2. الالتفات يمينا وشمالا لغير حاجة: فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سألت رسول الله عن التلفت في الصلاة فقال: « اختلاس يختلسه الشيطان من العبد»[31]. هذا في الظاهر والباطن. وإن علمت القبلة ما هي، علمت ما حقيقة الالتفات عنها بالتبع.

3. أن يكون بين يديه ما يشغله من صورة أو زخرفة أو غيرهما: فعلى السالك أن يجتنب المواطن التي ينشغل فيها قلبه عن الله وإن كانت في ظاهرها غير مذمومة عقلا أو شرعا. وإنما يعلم ذلك من أثرها. وقد تختلف هذه الأمور من شخص إلى شخص. فعلى كل واحد أن يتفقد حاله، أو يرجع إلى شيخه يستفتيه إن هو عميت عليه.

4. الصلاة مع حضور طعام أو شدة حصر: فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « لا صلاة بحضرة طعام، ولا وهو يدافعه الأخبثان»[32]. على السالك أن يحسن سياسة طبيعته، فلا يجعلها في مقابلة سلوكه، بل عليه أن يجعلها خادمة له. والطبيعة تقتضي تحصيل النفع كالتقوي بالطعام والنكاح والنوم، كما تقتضي التخلص من الخبث بجميع أنواعه.

5. إغماض العينين إلا لمصلحة: وتناسبه العزلة في الحكم. إن مخالطة الناس هي الأصل في السلوك، لأنها موافقة للحقيقة. أما إن كان السالك في بدايته أو ضعيفا، أو كان أهل زمانه قد شاع فيهم الفسوق والعصيان، فإنه يُستحب له العزلة عنهم لأنها أوفق لأصول الشرع.

6. الصلاة في الأماكن الخسيسة: كالمزابل والمجازر وقارعة الطريق والحمامات، وإن كان يأمن على نفسه النجاسة. يقابلها في الباطن الشروع في السلوك مع تلبسه بالأحوال غير الشريفة، كمعاشرة أهل البدع والوقوف بباب السلاطين والترفع عن المساكين والتشوف إلى ما بأيدي

[31] . رواه البخاري.
[32] . رواه مسلم.

الناس. وذلك أن السلوك يُقصد به وجه الله، فلا تناسبه إلا أشرف الأحوال والهيئات. ومبدأ المناسبة لهو من أصول الشرع لمن كان ذا فقه.

7. التثاؤب: فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:« التثاؤب من الشيطان. فإذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع في الصلاة»[33]. ويقابله في الباطن كل أثر للشيطان، كسوء الظن أو ازدراء الغير أو تشكيك في أصل من الدين، أو حسد لأحد من الإخوان على ما ظهر عليه من فلاح في الطريق، إلى غير ذلك مما قد يعرض للمريدين. فالمطلوب هو كتم ذلك وعدم الإخبار به، والتضرع إلى الله في رفعه، حتى لا تتسع دائرة السوء وتنحصر في أقل حيّز. فإن الشيطان يحب أن يشيع السوء بين العباد. ومن أفشى مثل هذه الأمور فقد صار عونا له. فكيف يستقيم سلوكه في نفسه وهو من أعوان الشيطان؟!

8. الصلاة عند مغالبة النوم: فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « إذا نعس أحدكم فليرقد حتى يذهب عنه النوم، فإنه إذا صلى وهو ناعس، لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه». يُفهم من هذا أن السالك عليه أن يغتنم أوقات إقبال قلبه على الله، وخفة جوارحه ليشتغل بالذكر والعبادة. فإن ذلك ينفعه ويحصل به الزيادة في الأحوال. أما إذا وجد مللا أو فترة أو قبضا شديدا، فليسترح حتى يعود إليه نشاطه، لأن العمل في تلك الظروف يورث انقباضا عن الله واستيحاشا منه، كما يورث كراهة لعبادته سبحانه. وهذا حتما إن سلم من النقصان فلن يحصل زيادة. وإن كفاه أن يغير جنس العمل، كأن يخرج من ذكر إلى اشتغال بالعلم، فهو أولى. والأدب مع الله سيد الأعمال. فكيف يتأدب من لا يقبل على الله إقبال اللهفان؟! هذا هو الأصل في هذا الأمر. وأما إن كان المريد في مرحلة مجاهدة تحت نظر شيخ حكيم، فعليه الرجوع إلى حكم شيخه؛ لأن تداخل الأحكام قد يختلط عليه؛ كما أن الشيخ قد يعدل عن أصل الحكم إلى حكم استثنائي إذا رأى أنه يخلّص المريد من آفة تعوقه إما حالا أو استقبالا. ولهذا جُعل الشيوخ.

9. رفع البصر إلى السماء: لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم! لينتهُنّ أو لتُخطفَن أبصارهم»[34]. ورفع البصر في السلوك هو الطمع في الدخول على الله جراءة. بل الأنسب للسالك أن يرى نفسه أبعد الناس عن تحقيق هذا الأرب، وأن يرى أن دخوله في الطريق إنما هو تشبه بالرجال وتكثيرا لسوادهم عسى أن يبعثه الله بفضله فيهم. ومن يرى أنه أهل للوصول أو نيل المعرفة أو الولاية فهو بعيد. وقد رأينا من بعض عامة المريدين جراءة يكاد المرء يغشى عليه من هولها، حتى أن أحدهم يقول أنا لن أفعل كذا أو كذا حتى يفعل الله لي كذا وكذا. ولم يعلم المسكين أن هذه علامة الخذلان والطرد.

---

[33] . رواه الترمذي.

[34] . رواه الجماعة إلا مسلما والترمذي.

والمريد الموفق هو من يشتغل بربه دون انتظار عوض، بل يرى في دوام توفيقه لعبادة ربه أسمى أمانيه. فخدمة السيد شرف ما بعده شرف. ونعني بالخدمة خدمة الظاهر والباطن، لا خدمة الغافلين الذين يلبسون أثواب العبيد، وقلوبهم عامرة من الربوبية. هؤلاء ما نتكلم عنهم، فهم دون ما نحن بصدده.

10. فرقعة الأصابع وتشبيكها: وهو الاشتغال بفضول الأعمال دون مرعاة واجب الوقت، أو الدخول في الجدال الذي يكون بين أهل العقائد المختلفة. سواء كانت هذه العقائد كلية كعقائد أهل المذاهب الكلامية، أو جزئية داخل نفس المذهب الواحد.

11. تشمير الكمين عن الذراعين: وهو المبالغة بالاشتغال بإصلاح الظاهر، بما يحفظ الهيبة عند الناس ويوافق أعرافهم، على حساب الاشتغال بإصلاح الباطن الذي هو الأصل. فالمريدون الصادقون، يُعرف عنهم إهمال ظاهرهم في البدايات، من شدة اشتغالهم ببواطنهم. وكلما اقترب السالك من النهاية، مالت أحواله إلى الاعتدال في الأمور كلها.

12. الإشارة بالرأس أو اليد أو غيرهما، من غير ضرورة: وهو معاملة الخلق من دون مراعاة معاملة الحق فيهم. وذلك أن الخلق ليسوا مفصولين عن الحق. ومراعاة هذا التوفيق بين المعاملتين هو الأصل؛ أما الاستثناء، فيكون في محل لا يقبل نسبته إلى الحق شرعا. وكل معاملة للخلق (غير محرمة في الشرع) يقدمها السالك في النظر على معاملة الحق، فهي مكروهة. أما العدول إلى الحكم الاستثنائي على ضوء الشرع كما ذكرنا، فهو المعبر عنه بالضرورة.

13. وضع اليد على الخاصرة، أو رفع رجل من غير ضرورة: والمقصود في الباطن أن يبتعد السالك عن كل وصف ظاهره مشابه لأهل الغفلة عن الله. فإن المشابهة فرع المجانسة، والمجانسة تعطي وحدة المدد فتمنع تنور الباطن.

14. وضع الذراعين على الأرض عند السجود: المراد أن تواضع السالك لربه وفناءه فيه بعد ذلك، ينبغي أن يتميز عن حال أهل المهانة، الذين هم أهل ضعة لا تواضع. وذلك أن السالك عزيز بعزة مولاه وسيده. والتفريق بين العزة المكتسبة من النسبة إلى الحق والتعزز الذي هو من صفات النفس، يعلمه المرء بنور العلم الخاص بالمراقبة، أو يرجع فيه إلى شيخه يفتيه فيه. وذلك لأن صور الظاهر المتشابهة، والتي يحسبها أهل الظاهر ذات حكم واحد، قد تكون أحكامها في الباطن مختلفة. والعبرة بالحكم لا بالصورة. فتحفظ!

15. رفع الثوب من أمامه أو من خلفه إذا أراد السجود، أو اندراجه في الثوب: وهو مراعاة حكم العادة في القيام بمقتضى الأحكام الشرعية. والاندراج هو إتيان الأحكام الشرعية من داخل أحكام العادة: إما من غير قصد، كمن استحكمت فيه العوائد، أو بنية صالحة كموافقة الجماعة. هذا كله مكروه عند السالكين. أما من قدم حكم العادة على الحكم الشرعي، فسلوكه باطل.

16. التزام مكان خاص من المسجد للصلاة: وهو إحداث عادة من جنس السلوك، يعرف بها بين أقرانه ويشار إليه بها. هذا مخالف لأصل السلوك الذي يُبتغى به الخروج من أسر مختلف الأحوال.

17. الصلاة خلف صف فيه فرجة: المراد من السالك أن يسد الخلل حيث وجده، حتى يكون عاملا لربه بأمره. ومن ترك خللا يستطيع أن يسده فقد وقع تحت حكم نفسه. وأصل السلوك الخروج من تحكم النفس. والكراهة هنا متعلقة بحال الوقت الواحد، لا بمن كان دأبه اتباع حكم هواه. فإن هذا يبطل سلوكه من الأساس.

18. عدم مراعاة الترتيب في قراءة القرآن: المقصود به هنا مراعاة أحكام المراتب المعرفية الثلاث: الأفعال، والصفات والذات. فإحكام العمل على مرتبة الأفعال أسبق من مراعاة الصفات. وإحكام العمل بمقتضى مرتبة الصفات أسبق من مراعاة أحكام الذات. ومن عكس ـ كما يفعل بعض الجهلة ـ وقدم أحكام المرتبة الثالثة على الثانية وأحكام الثانية على الأولى، فإن كان في أمر بعينه، فهو مكروه لمخالفته الأصل؛ ومن كان دأبه ذلك في كل أموره، فسلوكه باطل. بل هو من المستهزئين بدين الله.

الفصل الثامن
متفرقات

1. ستر المصلي: يستحب للمصلي إذا كان في مكان فسيح أن يضع أمامه عصا أو كرسيا أو يصلي قرب حائط أو غيره، ليمنع مرور أحد بين يديه أثناء صلاته؛ فإذا أمن مرور أحد فلا يُستحب له ذلك. أما المأموم فسترة إمامه سترته. والمقصود في الباطن، أن يمنع السالك الحيلولة بينه وبين قبلته التي هي الحقيقة المحمدية في مظهر شيخه. والمكنى عنه بالمرور هنا هو السماح لأصحاب العقائد ـ ونعني الأئمة منهم ـ باعتراض توجه السالك في مسألة بعينها. أما من وقع له الحجْب التام في كل أموره، حتى صار لا يأخذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إلا ما أقره إمام مخصوص بعينه، فقد بطل سلوكه بسبب انحجابه عن القبلة. وهذا الأمر يغفل عنه أهل الظاهر كثيرا، حتى تجد منهم من لا يأخذ دينه إلا عن إمام معيّن، كما يفعل أتباع ابن تيمية رحمه الله من المتأخرين. والأحوط ـ في غير المذاهب الفقهية ـ أن يأخذ المرء برأي كل أئمة الإسلام، إن لم يتمكن من الأخذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة، أو في مظهرية الوارث.

أما المأموم هنا فهو من يتبع شيخا يسلك به الطريق، فهذا لا يشتغل بوضع السترة لأن إمامه يكفيه هذه المؤنة. وذلك لأن الإمام في الطريق يأخذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا ضمان من الوقوع في المحذور الذي هو الانقطاع عن الله.

ويحرم المرور بين يدي المصلي، كما يحرم على المصلي أن يتعرض بصلاته لمرور الناس، لما للصلاة من حرمة في نفسها. ومن يفعل ذلك فهو مستهين بها، ومن استهان بها فقد تعرض للمقت.

المرور بين يدي المصلي: هو دعوة المرء العباد للتوجه إليه دون أن يكون صاحب سر. فيكون في الصورة إماما، وفي الحقيقة مانعا للاستمداد. وهذا من أكبر الأمور القاطعة للعباد عن ربهم. ولا يفعله إلا مخذول. أما جعل المرء صلاته عرضة للمرور: فهو اتباعه لكل من ادعى أهلية التسليك. فيتبع هذا زمنا، ثم يعود إلى ذاك زمنا آخر، ولا مرجح عنده إلا هواه وعمى بصيرته. فهذا مستهين بسلوكه في نفسه. ولا يفلح أبدا. ولقد رأينا منهم عددا لا بأس به.

ومن تقدير الصلاة، دفع المصلي للمار بين يديه، إما بالإشارة أو بما يستطيع. وهو في الباطن دفع من يريد أن يدخل بين السالك وقبلته، أو بينه وبين قدوته، ومجاهدته بالباطن حتى لا يفسد عليه سلوكه. وتفاصيل هذا الأمر تطول، ونحن إنما اكتفينا بذكر الأصول.

2. الأذان: الأذان هو الإعلام بدخول وقت الصلاة. ويكون غيبيا من قِبل الملائكة التي أوكل الله إليها تبليغ الدعوة إلى قلوب المؤمنين. فتنتبه من غفلتها وتعزم على الإقبال على ربها. والدعوة المقصودة هنا هي دعوة الشيخ الرباني الذي نصبه الحق لدلالة العباد عليه. فهي دعوة خاصة لقوم مخصوصين، كما هو الأذان دعوة خاصة لقوم مخصوصين من المؤمنين. ولا يحجبنك عموم خطابها عن كونها مخصوصة. فما كل من سمع الأذان يصلي ثم ما كل من سمعه لباه. والتثنية في لفظ الأذان أتت بسبب كون الدعوة بين الغيب والشهادة، أو قل بين الحس والمعنى. وهذا من أكبر الأدلة على أن صلاة الظاهر وحدها لا تُجزئ. أما اختتام لفظ الأذان بلفظ " لا إله إلا الله " مرة واحدة على خلاف باقي الألفاظ، فهو للإشارة إلى أن الوصول يكون
لحقيقة واحدة هي أصل كل ازدواج ظهر بعدها. فالدعوة حقيقة هي إلى هذه الحقيقة. فمن لم يبلغها، فما أتم صلاته. فحقيقة الصلاة مطوية (مجملة) في الأذان، حتى يعلم المقبل علما إجماليا علامَ هو مقبل. هذا العلم يكون في غيب السامع. ولولا أنه كذلك ما فهم ألفاظ الأذان والمعاني التي تحتويها. هذا لا بد منه.

أما ألفاظ الأذان، فهي:

الله أكبر: لتمييزه عن باقي الأسماء. وذلك لأن المقصود من الصلاة تحقيق الجمع على الله، فلا يعطي ذلك إلا الاسم الجامع.

أشهد أن لا إله إلا الله: مشاهدة أن لا إله إلا الله في الحس والمعنى.

أشهد أن محمدا رسول الله: مشاهدة أن الواسطة بين الحق والخلق هو الحقيقة المحمدية، التي كانت آخر تدلياتها رسالته الخاتمة. أما الوقوف مع الوظيفة الرسالية وحدها، فهو من الحجب التي تناسب العامة.

حي على الصلاة: نداء إلى محل (منزل) ملاقاة الله.

حي على الفلاح: لا فلاح إلا لقاء الله، أما ما عداه من الجزاء المنوط بمختلف الأعمال، فهو بالمقارنة إلى هذا الفلاح كلا شيء. وفي الحقيقة لا وجه للمقارنة. لذلك كان على المريد أن لا يتطلع إلى جزاء أعماله، بل يتهيأ للقاء الله. هذا شرط.

الله أكبر: وقع الختم بما به كان البدء، للإشارة إلى أن كل شيء من الله وإلى الله يعود. فيكون الفرق بين جمعين، كما كان العسر بين يسرين.

أما ما يُستحب عند الأذان من قول السامع مثل ما يقول المؤذن، فلأن السامع ينبغي أن يبلغ الدعوة إلى نفسه. ولا أقرب إلى نفسه من نفسه. لهذا وجب على كل من بلغته الدعوة إلى الله (وهي أخص من الدعوة إلى دين الله) أن يدعو نفسه حتى لا يكون لها من الخائنين. وذلك لأنه يرجى له أن يستجيب الله له دعوته في نفسه بأن يؤهله لطلب تحقيق الصلاة، أو على الأقل يكتبه عنده ممن بلغ الدعوة فيظفر بجزاء الداعين.

أما ما يستحب من الدعاء بين الأذان والإقامة لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة»[35]، فلشرف الموطن.

ويستحب أن يصلي السامع على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإحدى الصيغ المعروفة وأن يدعو بدعاء الوسيلة. وذلك أن الدخول على الله لا يكون من غير بابه صلى الله عليه وآله وسلم، بمعنيي الحقيقة والرسالة. ولا أنسب من هذا الموطن بالتوسل بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم. فقد روي عن جابر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته. حلت له شفاعتي يوم القيامة»[36]. وانظر يا أخي كيف سمى الأذان دعوة، وكيف أعقب بذكر إقامة الصلاة التي هي الغرض من وراء الدعوة، تعثر على حكم إلهية جليلة! أما ورود هذا الذكر بصيغة الدعاء، فليعتقد السامع أنه في حقه لا في حق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. نقول هذا حتى نجنب المبتدئ الوقوع في سوء الأدب، وأما من جهة الحقائق، فالكلام قد يحتمل وجها آخر يوافق الظاهر، ولكن إدراكه يخفى عن غير المحققين. ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما صاغ هذا الدعاء، علم السامع كيف يدعو لنفسه باللفظ النبوي الشريف. ولا أقرب من هذا لتحقيق الإجابة عند الله. وذكر لفظ "الوسيلة" لا أدل منه على كون الوصول إلى الله من قِبل العباد لا يكون إلا بواسطته صلى الله عليه وآله وسلم. هذا ما تقتضيه الحقيقة كما بيّنا سابقا. وهذا تنبيه للمقبل على الله، حتى لا يظن الاستقلال بنفسه فيحجب. أما "الفضيلة" فهي ما امتازت به هذه الأمة من بلوغ أعلى مراتب المعرفة، التي لم تكن متاحة للأمم السابقة. وما ذلك إلا لنسبتها إليه صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة. والأمم السابقة منسوبة إلى نبينا بواسطة الأنبياء السابقين عليهم السلام، فنسبتها من الدرجة الثانية. أما الشفاعة التي ينالها الداعي يوم القيامة والتي تقتضي عدم دخول النار، أو تقتضي الخروج منها بعد دخولها، فهذه أدنى مرتبة منها. أما أعلاها، فالشفاعة للقبول في سلك المصلّين، ثم الشفاعة لنيل مراتب السلوك ومقاماته،

[35] . رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن أنس رضي الله عنه.
[36] . رواه الجماعة إلا مسلما.

ثم الشفاعة لنيل الوصول والتحقق بالحق. فلا شيء من هذا يُنال بغير شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم، بسبب عزة الموطن. فتنبه يرحمك الله.

3. الإقامة: الإقامة إعلام بالقيام إلى الصلاة. فهي أخص من الأذان. وذلك لأنها لا تخاطب عموم المؤمنين، وإنما تخاطب المصلين الحاضرين وحدهم. نعني من استعدوا للصلاة. لذلك هي متصلة بالصلاة بخلاف الأذان.

وألفاظها تشبه ألفاظ الأذان إلا أنها لا يثنى فيها إلا التكبير ولفظ: " قد قامت الصلاة "المميز لها. وهذا اللفظ المزيد يشعر بالدخول في الصلاة حتى يحضر المصلي بقلبه حضورا خاصا، يليق بالدخول على الملك.

ويستحب للمؤذن أن يكون هو من يقيم الصلاة، لكون الإقامة صورة خاصة عن الأذان، مع جواز أن يقيم غيره إذا روعيت الحكمة.

والمؤذن والمقيم، قد يقصد بهما الملائكة المكلفة بالتبليغ غيبا كما سبق أن ذكرنا، وقد يقصد منهما كل من بلّغ دعوة إمام من الناس. فإذا كان الشرط في الإمام أن يكون ربانيا، فإن الشرط في المبلغ أن يدعو إلى الله باتباع السنة، حتى لا يتطفل على التزكية الشرعية من كانت غايته دنيا أو تحقيق هوى. وكل من يدعو إلى اتباع إمام من منطلق العصبية أو الموافقة غير الشرعية، فما هو مؤذن ولا مقيم، بل هو من دعاة الضلال. هكذا هو الأمر.

4. صلاة الجماعة: صورة صلاة الجماعة تعود إلى الإمام الذي هو الاسم الجامع "الله" مع الأسماء الأخرى التي هي وجوه له وفروع. ولقد رتب الشارع على صلاة الجماعة أجرا أكثر من صلاة الفذ بسبب موافقة الصورة للحقيقة. فكل مصل هو تحت حكم اسم خاص من الأسماء. لكن الإمام في الظاهر قد يكون هو عبد "الله" وقد لا يكون. فإن كان هو صاحب الاسم الجامع، فإن الصورة تكون مطابقة للحقيقة، أي تكون مظهرا للواحدية. وقد حدث هذا في زمن النبوة وإبان الخلافة الراشدة. لذلك كانت تلك الفترة فترة بركات وزيادة خيرات. أما إذا لم يكن الإمام إماما في الباطن، فإن الإمامة تنصرف إلى صاحبها حيث كان، ويبقى الأجر لمن حافظ على صورة الظاهر الشرعية. وتستحب صلاة الجماعة لكل من لم يكمل من الرجال، أما من كمل فصلاته وحده كصلاته في جماعة، لكونه جماعة وحده. هذا في الحقيقة، أما من حيث ظاهر الشريعة فلا عليه أن يصلي كآحاد الناس، فيحصّل الأجرين.

الفصل التاسع
صلاة الجمعة

المعنى الذي ذكرناه في صلاة الجماعة هو آكد في صلاة الجمعة. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا»[37]. فالمشترَك بين آدم عليه السلام ويوم الجمعة هو الجمع. فهي ـ أي صلاة الجمعة ـ تجلٍّ غيبي للبصائر هنا، كما هو يومُها في الآخرة تجل للأبصار والبصائر في الكثيب. وكونها صلاة يؤديها أهل البلد كلهم بإمامة إمام واحد، يجعلها تجسد إمامة الاسم "الله" لكل الأسماء في صورة أكمل من صلاة الجماعة؛ وذلك لأن كثيرا من الأسماء الفرعية (الرئيسة) تكون حاضرة على صورة مأمومين إلى جانب المأمومين الأصليين. هذا ما جعل صلاة الجمعة فرضا أسبوعيا إلى جانب صلاة الجماعة التي هي يومية على خلاف بين الفقهاء في كونها فرضا عينيا أو سنة مؤكدة. ومن أجل ذلك أيضا كان يشترط في صلاة الجمعة حضور عدد معين ـ على خلاف فيه بين الفقهاء ـ بخلاف صلاة الجماعة التي تنعقد بالاثنين فصاعدا.

1. وقتها: هو وقت الظهر وهو من زوال الشمس إلى أن يصير ظل كل شيء مثله. أي وقتها هو تجلي الحق باسمه الظاهر، وبدايته من زوال الشمس. فعند استواء الشمس ينعدم الظل، فيكون شهود الحق منه إليه. فهذا لا يفيد علما حتى يرد العبد إلى نفسه، وأدناه الزوال. وهو المعبر عنه باللطيفة التي تبقى مع العارفين، والتي يتوجه عليها الخطاب. أما أقصى هذا الوقت (الشأن) فهو عندما يصير ظل الشيء مثله، وهذا هو المعبر به عن وجود النفس. فالنفس هي مثلُ الشيء الوهميُّ. والمقصود بالنفس عند العارفين، تمام عبودية الظاهر. وهي دليل على الرسوخ والتمكن، بخلاف ظهور النفس الذي يكون قبل الزوال. فهو للمريدين. وكل مشاهدة تقع هناك فهي مشاهدة بالنفس، بعكس الراسخين الذين تكون مشاهدتهم بالحق. وقد أشار الله تعالى إلى هذه المعاني وغيرها، في قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ﴾[38]، وتأمل كيف أن الشمس هي الدليل على الظل، لا العكس، كما يقول الغافلون. ويستفاد من قوله تعالى: وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ،حصول الإذن للظل بالحركة. وهذا هو عينه الإذن

[37] . أخرجه مسلم في الصحيح.
[38] . الفرقان: 45.

بالصلاة. فنبه الله بقوله هذا إلى نعمة الصلاة التي لا يغفل عن عظيم قدرها إلا من قال: « وجعلت قرة عيني في الصلاة»[39]. فلله الحمد على هذه النعمة التي لا تعدلها نعمة، وهذه المكانة التي تقصر عنها كل همة.

2. من تجب عليه صلاة الجمعة: تجب على المسلم الحر: عن تحكم الأغيار. العاقل: الذي يعقل الله الجبار. البالغ: رشده في عرف العرفاء الأخيار. المقيم: من أهل مقام الوصول لا من السالكين المرتحلين في الليل والنهار. القادر: على احتمال التجلي بالله فلا ينخرم منه ظاهر الافتقار. الخالي من الأعذار.

3. مكانها: في المدينة أو القرية، وفي المسجد وأبنية البلد أو الأماكن المجاورة له. والأفضل أن تقام في مكان واحد إذا كان يتسع لجميع من تجب عليهم. في الباطن المكان يعود مكانة. فهي تجب على أهل الحال أو المقام، وتكون في حضرة التخصيص أو فيما دونها من الحضرات؛ لأن الأصل في الحضرة الشمول من حيث الذات. وهي المشار إليها بالمكان المتسع لجميع المصلين.

4. الخطبتان: الخطبتان مقدمتان على الركعتين. وهما في مقام السمع، أي من حضرة العلم التفصيلي. فهما تتعلقان بعلم السلوك بالنسبة إلى المريدين، وبعلم الحقائق بالنسبة إلى العارفين. لذلك كانتا اثنتين، حتى ينهل كلٌّ من الصنفين من منهله، مع مشاركة الأدنى للأعلى استشرافا، ومشاركة الأعلى للأدنى تنزلا واستدراكا.

ويشترط للخطبتين أن تشتملا على:

ـ حمد الله. وهو الثناء عليه بحسب المقام.

ـ الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لحصول المدد.

ـ الوصية بالتقوى، حتى يأمن المحقق مكر الأسماء به وتصرفها فيه. فالمكر يلطف بحسب الرتبة والمقام. والعلم متفاوت بحسب درجات العلماء. والسليم من سلّمه الله.

ـ قراءة آية من القرآن، بحسب الحال.

ـ الدعاء للمؤمنين، الذين ما زالوا خلف الحجاب. وهو شفاعة في حقهم.

5. **آداب صلاة الجمعة:** يستحب لمن أراد حضور الجمعة أن يكون على أحسن حال من النظافة والزينة. فيغتسل ويتطيب ويلبس أحسن الثياب. العبد في الجمعة مقابل للحق. والحق لا يقبل عليه حتى يرى جماله فيه. والمقصود بالاغتسال، الخروج من آثار النفس، والمقصود بالطيب التخلق بأخلاق الله، والمقصود بلبس أحسن الثياب أن يتلبس بأحسن أحواله. فالمتمكن يصرف الأحوال ولا تصرفه الأحوال. يصرفها بحسب المواطن. والجمعة لها حال مخصوص يناسبها، من لبس غيرَه كان نقصا في حقه.

[39] . من حديث رواه النسائي والحاكم عن أنس رضي الله عنه، ورواه البيهقي في سننه.

ويستحسن التبكير إلى حضور الجمعة، لأن العبد عليه أن يتهمم بسيده ويسبقه إلى المبادرة بالحضور إلى موعد اللقاء. هذا ما يقتضيه الفقر الأصلي. ومن لم يراع هذا الأصل كان من المخذولين. ومن حضر متأخرا يكره له تخطي الرقاب، أي الطمع فيما نالوه دونه من المواهب، لأن فيه رائحة الجراءة على الله. والحضرة كلها أدب.

5. الدعاء: عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذكر يوم الجمعة فقال: « فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي، يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه»[40]. الساعة هنا تتعلق بحال المصلي، لذلك عبر عنها بالموافقة. ومن أجلها سمي اليوم يوم الجمعة. فهي ساعة الجمع على الله. والجمع عزيز، ما يكاد يحصل حتى يولي. بسبب حركة الحال. فمن وافق حال الجمع في يوم الجمعة، فهو من صلى الجمعة حقيقة، أما غيره فمتشبهون متعرضون. وعبر عن ثمرة الجمع بإجابة السؤال، لأن العبد يقول به كن للشيء فيكون.

وساعة الجمعة تشبه من حيث الحقيقة ليلة القدر، غير أن هذه الأخيرة جمعها أكبر. ومن هنا كانت الجمعة جَمعا للأسبوع وليلة القدر جمعا للسنة كلها. فمن أدرك ساعة الجمعة فقد حصل جمع الأسبوع، ومن أدرك ليلة القدر فقد حصل جمع السنة. كما أن من حصل جمع عرفة، فقد حصل جمع العمر. ومن هنا قال بعض أهل الله بكون ليلة القدر منبهمة في السنة كلها لا في شهر رمضان وحده. والأحاديث التي وردت في كونها في العشر الأواخر من شهر رمضان، تؤخذ على أنها مقيدة بزمن مخصوص كانت فيه هذه الليلة ضمنها. هذا هو الأصح.

وما قلناه لا يتنافى مع ما ورد في وقت ساعة الجمعة في الأحاديث التي نصت على ذلك، من كونها بين جلوس الإمام والصلاة، أو بعد العصر. وذلك لكون هذين الوقتين أقرب إلى تحصيلها من سواهما في الظاهر، ومع ذلك يبقى جانب الباطن مفتوحا على جميع الأوقات بسبب كونه راجعا إلى الحال. ومن أدرك العلاقة بين الظاهر والباطن في الأمور حصل علما شريفا يقل من يتنبه إليه.

[40] . أخرجه البخاري ومسلم.

الفصل العاشر
صلاة الجنازة

الجنازة مِن جَنَزَ يَجْنِزُ ومعناه ستر وجمع. فنجد معنى الجمع الذي عرفناه في معنى الصلاة عموما، يتأكد في صورة كل صلاة خاصة. فالميت مجموع على الله، لكون الموت قيامة صغرى في مقابل القيامة الكبرى التي تكون بعد فناء الدنيا. والقيامة محل العرض على الله ومحل رؤيته سبحانه. فهذه المعاني هي ما جعل الموت متضمنا لمعنى الجمع. هذا بالنسبة إلى غير أهل الله، وفيما يتعلق بالموت الحسي الطبيعي.

أما الموت المعنوي الذي يتكلم عنه أصحاب الطريق، فإنه يحدث للولي وهو في دار الدنيا؛ وبحدوثه، يعتبر منتقلا عن الدنيا حكما.

وأما كون الحي هو من يصلي صلاة الجنازة، فمن مقام النيابة. ومن هذا المقام ضحى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن أمته، ومنه يأتي الشيخ بالعمل نيابة عن مريده.

وصلاة الجنازة في المعنى يصليها الشيخ على مريده المقبل على الفناء في الله.

وأركانها هي:

1. **النية:** وقد سبق الكلام عنها.
2. **القيام:** لا تصح هذه الصلاة إلا ممن كان قيامه بالله لا بنفسه. فالميت لا يصلي على الميت.
3. **التكبيرات الأربع:** وهي محاصرة العبد بالتجلي من جهاته الأربع حتى لا تجد نفسه معه مخرجا. والجهات الأربع هي: الأمام والخلف واليمين والشمال. أما جهتا العلو والسفل فلا وجود للنفس فيهما، لأن العلو ربوبية صرف، والسفل عبودية صرف.
4. **قراءة الفاتحة:** للرجوع إلى الأصل الجامع الذي تلتقي فيه الفروع. وقد مر الكلام عنها.
5. **الصلاة على رسول الله:** بأي صيغة كانت وإن كان اللفظ المأثور أولى. من هنا تعلم أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم مطلقة في اللفظ، حتى يقول كل شاهد بحسب مشهده فيه صلى الله عليه وآله وسلم. هذا أصل يجهله كثير من مدعي السنة في زماننا، حتى صاروا يبدعون أهل الله عند صلاتهم بغير ما يعلمون من ألفاظ.

6. الدعاء للميت: وباطنه "كن" لمن كان من أهلها. فظاهر الدعاء شفاعة وباطنه إرادة.

فقراءة الفاتحة بعد التكبيرة الأولى تكون من أمام، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم تكون من خلف. وهما أكبر أركان الحفظ من السوء. أما الدعاء للميت بعد التكبيرة الثالثة فيكون عن يمين، بسبب شرط الإيقان بالإجابة. فقد ورد عن أبي

هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»[41]. والدعاء للنفس ولجميع المسلمين الذي بعد التكبيرة الرابعة يكون عن شمال بسبب وجود احتمال ورود السوء من قِبله بسبب فسحة الأجل وعدم الجزم بالخاتمة.

7. السلام: وهو دائما للخروج من التقييد إلى الإطلاق.

شروط صلاة الجنازة:

1. أن يكون الميت مسلما. فقد نهى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾[42]. الإسلام لله بالمعنى الخاص، هو الإسلام له في المظهر النبوي أو المظهر الوراثي. فمن لم يكن من هؤلاء فلا تجوز الصلاة عليه، بسبب فقده لهذه النسبة الخاصة. والكفر بالله ورسوله هنا كفر خاص: فالله هو الظاهر، والمظهر هو الرسول بحسب كل مقام. فالرسالة تصدق بالمعنى الاصطلاحي وبالمعنى اللغوي الذي نشير إليه هنا.

2. أن يكون الميت حاضرا. وهو هنا حضور معاشرة ومعاصرة. وهذا من مقتضيات الحكمة. فالتلميذ لا بد له من الأخذ عمن يعاصره من الشيوخ. أما الصلاة على الغائب فقد اختلف في جوازها أهل الظاهر، وقال من لا يقول بجوازها إن صلاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم على النجاشي خصوصية له. وعند أهل الباطن، الخصوصية معتبرة أكثر من أهل الظاهر. لذلك تظهر هذه الاستثناءات بأخذ بعضهم عن بعض مع عدم مشاركتهم في الزمان فينتفع متأخرهم بمتقدمهم بمشيئة الله. وقد يقع العكس للمعتنى بهم. هذا من حيث النسبة، أما من حيث الحقيقة فلا يخرج أحد عن حكم صاحب زمانه، علم ذلك أم لم يعلمه، لأن هذا من مقتضيات الخلافة الإلهية.

3. طهارة الميت: فلا تجوز الصلاة على الميت قبل الغسل أو التيمم. والطهارة هنا هي الشهادة للمريد بالتخلص من حكم النفس، على ما يعطيه قطع مراحل الطريق والتحقق بعلومها. إما على

---

[41] . أخرجه الترمذي في سننه.

[42] . التوبة: 84.

التفصيل أو على الإجمال بحسب ما يعطيه الوقت والحال. والطهارة تتحقق في مرتبة الأفعال ثم في مرتبة الصفات ثم في مرتبة الذات.

4. أن يكون الميت مقدَّما أمام المصلين: الميت كالعروس، وزفه يكون بتقديمه لموافقة المعنى ولزوم الأدب.

5. أن لا يكون الميت محمولا وقت الصلاة عليه: لأن المحمول متلبس بهيئة السائر. والسائر متحرك في المعنى. والميت لا حركة له. فهو ساكن.

6. أن لا يكون شهيدا: عند غير الحنفية الذين يقولون الشهيد لا يغسل ولكن تجب الصلاة عليه. شهيدا بمعنى مشهودا. وهذا الشرط متعلق بالإمام. فإن شهد الإمام الحق في الميت فقد تغير حكمه وارتفع بذلك وجوب الغسل والصلاة. يرتفع الغسل بسبب القدسية، وترتفع الصلاة بسبب الغنى. يقع هذا لأن المشاهدة سلطانها لا يغالَب، وحكمها قاهر. فلا علم مع المشاهدة إلا ما تعطيه هي.

والشهيد في المعنى هو كل عبد قدّم خلقه قربانا إلى حقه، فتولاه الحق فصار خلقه مظهرا لحقه. والشهيد شهيدان: شهيد في المعنى وشهيد في الحس. فشهيد المعنى هو الولي الذي مات في الله، وشهيد الحس هو المعلوم عند الناس، وهو من يموت في سبيل الله.

والموت في المعنى هو عودة العبد إلى حكمه العدمي، وهو ما يسمى موت النفس. وهو شرط في لقاء الله عند العموم وعند الخصوص. فعند العموم بما هو معلوم في العقائد، وعند الخصوص بمعرفة الحق والتحقق به.

لكن النظر إلى الموت يتباين بين الخاصة والعامة؛ فالعامة يكرهون الموت لأن نفوسهم تنفر منه، وهم تحت حكمها؛ أما الخاصة فيتوقون إليه لعلمهم بأنه شرط في اللقاء. وهم نظرهم إلى الحق، فلا راحة لهم حتى يلاقوه.

ثم إن العامة يقبض نفوسَهم ملَك الموت الموكل بها، والخاصة يقبضهم الحق.

وكما أن للموت الحسي سكرات، فكذلك للموت المعنوي. وكل ما يلاقيه السالك من شدائد وآلام أثناء سيره، فإن أثره على نفسه هو من سكرات الموت الخاص به. وسكرات الموت هي في الحقيقة تفاصيله ومراحله. فالموت موتات. وكل موت متعلق بعضو من الأعضاء في الحس، أو بمرتبة من مراتب النفس في المعنى. فالنفس تموت في مرتبة الفعل أولا، ثم في مرتبة الصفات، ثم في مرتبة الذات، كما مر.

ويقع الموت الحسي بغروب الروح عن الجسد، أما الموت المعنوي فيقع بإشراق الروح على الجسد وتنوره. فبغروب الروح ينقطع النفس الحيواني، وبإشراقه ينقطع النفس الإنساني.

والموت الحسي لا إرادي في حق الميت إلا الشهيد، بينما هو إرادي في حـق الـسالكين، فهـو استشهاد في الله بالنسبة إليهم لا في سبيل الله كما هو عند الشهداء. وعلى هذا فالواصلون مـن السالكين هم خواص الشهداء. لذلك كانت الحياة التي يظهر بها الشهداء عند مـوتهم، يظهـر بهـا الأولياء أثناء حياتهم الدنيوية. فالشهداء أموات أحياء، والعارفون أحياء أموات، لأن حياة الـشهداء تحت حكم الاسم الباطن، وحياة الأولياء تحت حكم الاسم الظاهر. كل هذا بالنسبة إلى المـوطن الذي هو الدنيا. أما في الآخرة فيكون التميز بالدرجات.

الفصل الحادي عشر
ركعات الصلوات

الصلوات المقصودة هنا، هي الصلوات الخمس. ومعلوم أن أصلها ركعتان. فزيد في بعض دون بعض بعد ذلك. فالركعة الأولى كما سبق أن بيّنّا للسلوك الأول، والركعة الثانية للسلوك الثاني. فلما زيد في عدد الركعات، زيد على كل واحدة من جنسها. فأصبحت الصلوات على هذه الشاكلة:

الصبح: بسبب وقوعها في البطون الذي هو الليل الوجودي، وسير السالك فيها نحو الظهور،فقد تأكد فيها السلوك الأول، حتى تتأكد أحكام الفرق.

الظهر والعصر: بسبب وقوعهما في النهار، فقد تأكد فيهما السلوكان. فزيد على الركعة الأولى مثلها، وزيد على الثانية مثلها. فأصبح عدد ركعاتهما أربعا. وذلك بسبب بعد هذا التجلي عن الأصل. والسالك يحتاج هنا تعملا أكبر، فهو يتعرف إلى الظاهر وظاهر الظاهر الذي هو الباطن نفسه. فكأن الأصل عنده ينتج عن الفرع، بخلاف مصلي الصبح، فإن الفرع عنده ينتج عن الأصل. هذا مع وجود فرق بين تجلي الظهر وتجلي العصر، بسبب كون السالك في العصر مقبلا على البطون علما. فهي تعطي من الإيمان ما لا تعطيه صلاة الظهر.

المغرب: تحتاج سلوكين، لكن لا بنفس القوة. فالسلوك الأول متأكد فيها بالركعة الثانية، والثاني غير متأكد، بسبب الشروع في ولوج البطون. وذلك لأن البطون أصل كما قلنا.

العشاء: يحتاج هذا التجلي إلى تأكيد السلوكين معا، بسبب تغلغله في الباطن، فالسالك هنا يتعرف على الباطن وباطن الباطن الذي هو الظاهر نفسه. وتقع هذه الصلاة في مقابل صلاة الظهر.

ولعلك لاحظت أن التجلي منحصر بين باطن وظاهر، وهو الحاكم على نوعية سلوك كل وقت، وبالتالي على عدد ركعات كل صلاة؛ ولعلك لاحظت أيضا أن البرازخ تعطي ما لا يعطيه غيرها. ولتعد إلى ما قلناه في بداية الكتاب عن الوقت حتى تكتمل لديك الصورة. ولتعلم أن اليوم الذي نتكلم عنه هو يوم الله، الذي هو أصل كل الأيام، بما فيها الأيام التي نعد بها نحن في العادة.

الفصل الثاني عشر
وهمية السير

بما أن اعتابارات الظهور والبطون، وغيرها من الصفات، أصلها نسب عدمية عقلناها بعد حدوث تجليات في الذات، فإن السير إلى الحق هو الآخر ذو أصل عدمي، يحدث في وهم السالك ليرجع به من معقولية آثار الأسماء إلى التحقق بالمسمى. وهذا الرجوع هو المقصود من حيث الباطن بورود كلمة رجع أو ما يفيد معناها في الكتاب العزيز كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾[43]. وكما أن صفة الخلق تنسحب على كل موجود سوى الله، فكذلك الرجوع عام يشمل جميع الخلق. ستقول إن هذا يقتضي أن يكون كل مخلوق سالكا، وهو يخالف خصوصية السالكين؟ فنقول: ما ذهبت إليه صحيح، ولكن عليك أن تعلم أن لكل صنف من المخلوقات سلوكا خاصا به. فإذا قصرنا الحديث عن السالكين من جنس الإنسان، فلتعلم أن من يسمَّوْن سالكين في الاصطلاح هم من يسيرون في طريق التحقق أثناء وجودهم الدنيوي، وقد اختصوا بهذا الاسم لشرفهم وتميزهم عن بني جنسهم. فهم السابقون. فإن عدنا إلى عامة المؤمنين، فإن سلوكهم ـ وهو سلوك من الدرجة الثانية ـ يتحقق عبر مواطن وجوداتهم الدنيوية والبرزخية والأخروية، فيكون وصولهم في موطن الزَّوْرِ الأعظم في الكثيب خارج الجنة. أما الكافرون فسلوكهم ـ والذي هو سلوك ثالث ـ يتحقق عبر وجوداتهم الدنيوية والبرزخية والأخروية، لكن وصولهم ينتهي إلى الباب الثامن المسدود من أبواب جهنم.

وقصرُنا الكلام في النوع الأول من السلوك، هو دعوة إلى السبيل الأقوم على قدم إمام الدعاة إلى الحق قاطبة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وإن عدت إلى أصناف السلوك تجدها مرتبطة بنوعية الاستعداد التي لكل واحد. فأصحاب السلوك الأول هم الذين يعبدون الله لوجهه الكريم. وهؤلاء هم العبيد حقا، أو إن شئت قلت هم الأحرار، كما سبق أن نبه إلى ذلك بعض الأئمة السابقين؛ وأصحاب السلوك الثاني، هم من يعبدون الله طمعا فيما عنده، وهؤلاء نسبتهم إلى الجنة؛ وأما أصحاب السلوك الثالث فهم الذين يعبدون الله قهرا، وهؤلاء نسبتهم إلى النار، فهي دار الجبابرة والمتكبرين. فإن تبينت هذا علمت أن الصنف الأول نسبتهم إلى الله، فهم أهل الله وخاصته. وقد ورد في الحديث الشريف عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « إن لله عز وجل أهلين من الناس وإن أهل القرآن أهل الله

[43] . المؤمنون: 115.

وخاصته. »[44] وإن الناس يصرفون هذا الحديث إلى حفظة القرآن والدارسين له، والحقيقة أنه لا ينطبق إلا على المتحققين بالقرآن. ففرق بين من يشتغل بالقرآن إيمانا، وبين من تحقق به. هذا مع التأكيد على فضل حفظة الكتاب من غير ريب. ولكن المعنى الذي نشير إليه هنا قد يتوفر عند رجال أميين في الظاهر، فيظن من لا علم له أنه ليس من أهل القرآن، فيقع في الجهالة. ولتتأكد مما قلناه فعليك أن تعلم أن أغلب حفظة القرآن أو المشتغلين بعلومه، لا علم لهم بالله. ونقصد هنا بالعلم بالله، العلم الخاص الذوقي، لا علم العقائد العقلي. فبينهما ما بين السماء والأرض من بَون. وما قصدنا بهذا الكلام، إلا العودة بالأمة إلى صحيح الفهم في الكتاب والسنة؛ فإن أغلب ما أصاب المسلمين من وهن، إنما كان بسبب الخروج بالنصوص عن وجهها، وصرفها إلى غير وجهتها. وهذا باب من العلم جليل، لا يتقنه إلا المجددون الذين ورد ذكرهم في قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[45].

[44] . أخرجه أحمد وابن ماجة.
[45] . أخرجه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الباب الثاني
مراتب الصلاة

الفصل الأول
أحكام المصلي

المصلي إما إمام أو مأموم أو فذ.

فالإمام هو المتقن لأحكام الصلاة، العالم بتفاصيلها. وهو الواصل الذي خبر مراحل السلوك ومقاماته وأحواله، الذي أُذن له في الدلالة على الحق. وهذا هو الشيخ المربي الرباني. ومن ظفر به، فقد ظفر بالحق وإن لم يتبيّن ذلك. وما بقي عليه إلا أن يتّبعه، ويُسْلِم قياده إليه إسلاما، يجهَد أن لا يشوب علاقته به فكر.

وأما المأموم، فهو المريد الذي استوفى شروط الإرادة، ونهض قلبه إلى طلب الحق بعد أن تجافى عن مضاجع السوى. ولا يكون هذا إلا لمن اعتنى الحق بهم، واستنقذهم مما الناس فيه منغمسون. واعلم أن المأموم على التفصيل، منه مريد ومنه مراد. وهما مشتركان في الحقيقة، غير أن التمييز بينهما يكون من حيث غلبة الصفة لا غير. فالمريد هو من يغلب عليه طلب الحق بنفسه، فيسلك بها طريق المجاهدة، وطلب علم السلوك حتى يستوفي شروط السير. ويكون أقرب إلى أهل العلم في الظاهر، أما من حيث الباطن فهو مراد. والمراد في الاصطلاح، هو من يغلب عليه الجذب الذي في الباطن حتى يخرج به عن الاختيار في الظاهر. فيكون مقهورا في سيره أكثر من المريد. وعلى هذا، فالمريد يكون مرادا من حيث الباطن، والمراد يكون مريدا من حيث الباطن. هذا بالنسبة إلى المأمومين خصوصا، وإلا فالجذب والسلوك تكون أحكامهما أوسع مما ذكرنا.

وأما الفذ، فهو الواصل المتحقق الذي لم يؤذن له في التربية. فهو جماعة وحده. وصلاة الجماعة لديه تعتبر صلاة جمع، بخلاف الإمام الذي تكون صلاة الجماعة عنده صلاة جمع وفرق. فالفذ وارث للنبوة، والإمام المتبوع وارث للنبوة والرسالة.

أما العامة المقلدون لصورة الصلاة من دون أن يتحققوا بشيء منها، فلهم الأجر في الإتيان بالصورة، إن وافقوا العلم، وتقبّل الله منهم. فإن لم يكن، فصلاتهم لغو من العمل. وفيهم حقيقة ورد قول الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾[46]. فهم مصلون غير مصلين، أي مصلون بالصورة غير مصلين بالحقيقة. وهم مصلون ساهون عن صلاتهم في نفس صلاتهم. لذلك تطرق إليهم الرياء الذي هو شرك في النظر،

[46] . الماعون: 4 - 7.

وغلبت عليهم صفات النفس التي يعتبر الشح أصلها الأكبر. فذكَره الله بلفظ المنع. وملازمة الشح للنفس، أتتها من حقيقتها العدمية. فهي عند شمها لرائحة الوجود، تخاف أن تعود إلى العدم. وهذا الخوف هو الذي يورثها الشح الذي يظهر في مرتبة الفعل منعا. وظهور الصفة في مرتبة الفعل يكون بسبب تشبع الذات بها. أما خوف النفس من العودة إلى العدم الأصلي، فهو بسبب وقوعها تحت حكم الوهم. ولولا ذلك، لعلمت أنها ما خرجت عن عدمها، ولعلمت أن كل وجود، هو للحق وليس لها. وتحصيل هذا العلم، لا يكون إلا لأئمة التحقيق. أما إن تعاظَمْتَ ورود ذكر الويل الذي هو واد في جهنم، وعيدا لهذا الصنف من المصلين، فاعلم أن الخواص، عندهم الحجاب عن ربهم أشد إيلاما منه. ولا يخفى أن المصلي الساهي عن صلاته هو واقع تحت حكم الحجاب قطعا. ولكن غلبة الحِس على إدراك العامة تجعلهم لا يعتبرون إلا إياه في الأحكام. ولو وضع المرء في اعتباره أن للصلاة الصورية مقصدا كباقي الأعمال، لسهل عليه إدراك ما نرمي إليه. والكلام الذي نقوله هنا، لا ينفي بالضرورة ما يعتقده الناس في تفسير هذه الآيات، بل هو يؤصله ويزيده عمقا. وهؤلاء المقلدون هم في المرتبة كالصبيان الذين بلغوا عشرا، فوجب على أوليائهم حضهم على الصلاة، في انتظار أن يبلغوا فيعمهم خطاب الشرع.

فانظر ـ يرحمك الله ـ من أي صنف من المصلين أنت، واعلم ما لك وما عليك، حتى تكون على بينة مما أنت فيه. وعسى أن يكون ذلك سببا في نهوضك إلى الترقي عنه، فتنال ما لم يكن يخطر لك على بال، ونحصل نحن معك أجر الدلالة على الخير. والله يوفق من يشاء لما يشاء سبحانه.

الفصل الثاني
مراتب المصلين

إذا علمت أن المصلين درجات، فاعلم أن لكل صنف من المصلين صلاة تخصه. لكن، قبل ذلك يجب أن تعلم أن المصلي حقيقة وبالأصالة، هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وذلك لأنه ليس بينه وبين الله واسطة. أما من عداه من المصلين، فصلاتهم تكون بصلاته صلى الله عليه وآله وسلم. فهي إما من الدرجة الثانية أو الثالثة أو غيرهما. ومن مقتضيات صلاته عليه الصلاة والسلام، كاف الخطاب الخاص به في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾[47]، وقوله سبحانه: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾[48]، وقوله أيضا: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[49]، وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾[50]، وغيرها كثير. وصلاته صلى الله عليه وآله وسلم، متضمنة لكل صلوات العالمين، من صلوات مشروعة تحقيقية للمكلفين، إلى صلوات جبلّيّة مما للملائكة، أو للحيوان أو للنبات أو للجماد؛ مع ما يمتاز به جمعه وحقيقته صلى الله عليه وآله وسلم عن سائر المخلوقين. وقد ذكر الله هذه الصلوات في قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿١٥﴾﴾[51]، وفي قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[52]، وقد عرفنا قبلُ، أن السجود هو منتهى الصلاة، فلا تغفل عنه!

ثم تأتي بعد صلاته، صلاة القطب الذي في كل زمان. فهي أيضا صلاة شاملة، لكنها دون صلاة محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فهي صلاة مأموم وإن كانت في صورة إمام. لكن ذوقه في الصلاة المحمدية لا يعدله ذوق.

ثم تأتي صلاة المحققين الذين هم دون القطب في المرتبة، أو الذين هم خارج دائرته، ونعني بهم الأفراد.

ثم تأتي صلاة العلماء والفقهاء العاملين.

ثم تأتي صلاة المتقين من العُبّاد والزهاد.

---

47 . البقرة: 30.
48 . آل عمران: 60.
49 . الأنعام: 106.
50 . البقرة: 252.
51 . الرعد: 15.
52 . النحل: 49.

ثم تأتي صلاة عامة المؤمنين من الإنس والجن.

ثم تأتي صلاة غير المكلفين على مراتبهم.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « ...وصلّوا كما رأيتموني أصلي...»[53]. ونحن هنا لا نريد أن نقف عند المعنى الظاهر، المعلوم لدى علماء السنة والعامة على السواء، وإنما نريد أن نجاوزه إلى المعنى الباطن، والذي لا يعارض المعنى الظاهر وإنما يعمقه. نقول هذا لنطمئن أولئك الذين يتبرمون من كل معنى لم يألفوا سماعه، زاعمين أن ذلك هو دائما من شدة حرصهم على السنة النبوية المطهرة. فنقول:

إن العوالم من الحقيقة المحمدية، هي كالأعضاء والأجزاء والأنسجة والخلايا. وكل جزء منه صلى الله عليه وآله وسلم، له نصيب من صلاته الكلية. فصلاة ذاك الجزء، إنما تكون على قدر مشهده في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فهذا معنى: « كما رأيتموني أصلي». وصيغة الجمع في "رأيتموني" تعم جميع الأجزاء. فإذا علمت هذا، علمت أن التكليف، ورد في طيّه بالتعريف. فلا تُحجب بذاك عن هذا. وإلى هذا المعنى يشير ما جاء في الحديث: أن عمار بن ياسر صلى صلاة فأخفها فقيل له: خففت يا أبا اليقظان. فقال: هل رأيتموني نقصت من حدودها شيئا؟ قالوا: لا. قال: إني بادرت سهو الشيطان. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له نصفها. ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها.» وكان يقول: «إنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها.»[54] فالعقل هنا الإدراك كما هو أيضا الحضور. وإن استقر هذا عندك، علمت أن الصلاة عند من سوى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، نسبية (جزئية). وعلى قدر إدراك المصلي من صلاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تكون صلاته في نفسه. فلا تحجبك الصورة عن المعنى. ورحم الله عبدا علم قدر نفسه.

[53] . من حديث أخرجه البخاري عن مالك بن الحويرث.

[54] . أخرجه أحمد بإسناد صحيح، وأبو داود والنسائي.

الفصل الثالث
القبلة والمراتب

يقول الله تعالى:﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾[55]. ومعلوم أن أهل الكتاب كانت قبلتهم بيت المقدس. ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، صلى نحوه بضعة عشر شهرا، حتى أنزل الله عليه: فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ. وكانت أول صلاة صلاها عليه الصلاة والسلام إلى الكعبة العصر. فانظر المناسبة بين التوجه إلى الكعبة وبين العصر، على ما ذكرناه في أول باب. وبيت المقدس على التحقيق هو القلب. فصلاة أهل الكتاب قلبية. والقلب هو بيت تجلي الأسماء الإلهية. والأسماء الإلهية مختلفة المعاني، ومنها أسماء أفعال وأسماء صفات. ولذلك كثر الخلاف بين أهل الكتاب، حتى بلغ مداه في الاختلاف على الأصول. أما الكعبة فهي الذات. وهي ما يناسب مقام سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وإذا قلنا المقام، فإننا نعني به الإطلاق. ومن هنا كانت له الإحاطة عليه الصلاة والسلام بجميع الشرائع السابقة. فكما أن للذات الإحاطة بجميع الصفات، فكذلك هي له. والقبلة في المعنى هي ما يتوجه إليه سر العبد. فمن كان ذاتيا على قدم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقبلته المسجد الحرام. وهو مكان السجود لغة، ومكانة الفناء في الذات مقاما. وأما من كانت نسبته إلى الأسماء، فإن صلاته إلى بيت المقدس، وإن كان في الظاهر متوجها إلى الكعبة. ومن هنا يكون ورثة الأنبياء السابقين من محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فيقال في بعض أولياء الأمة: فلان إبراهيمي، وفلان موسوي، وآخر عيسوي، وهكذا.... وعند ملاحظة هذه الوراثة النبوية أيضا، تظهر لك الإحاطة الذاتية التي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وتقلب وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سماء الأسماء المذكور في الآية، هو دعاء استعداده الأكمل الذي ما هو إلا حقيقته. فاستجاب الله لهذا الدعاء، بتوجيهه صلى الله عليه وآله وسلم إلى ما يناسبه. وهكذا هو شأن كل من تأدب بآدابه صلى الله عليه وآله وسلم، فإنه لا يحدث شيئا فيما يتعلق بسلوكه إلا عن إذن، حتى يكون محمولا في أمره.

---

[55] . البقرة: 144 - 145.

وذِكر الله لمخالفة أهل الكتاب، رغم علمهم بالحق، فذلك لأن الكتب السماوية السابقة كانت تبشر بمبعثه صلى الله عليه وآله وسلم. وكان الأنبياء عليهم السلام يذكرون مقدمه كما يهيئ الغلمان لمقدم سيدهم. فكان انتظاره صلى الله عليه وآله وسلم بديهيا، في سياق الكمال الإيماني العام. وعند مقدم السيد، لا بد له أن يظهر في الناس بما يناسب مكانته، لا بما كان يراه الناس من الغلمان، وإلا اختلط الأمر على الناظرين. وهو ما يناسب الحكمة الإلهية.

ومن المناسبة أيضا للكمال المحمدي، اختصاصه صلى الله عليه وآله وسلم، في الصلاة بالسجود. فإن صلاة أهل الكتاب بين قيام وركوع، على هيئة الجثوّ. وأوضح ما يظهر هذا، في قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ ﴾[56]. فانظر كيف جعل صفة أتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم بين ركوع وسجود. وهذا للتغليب، كما يعلم من أساليب العربية، وإلا فمنهم القائم أيضا؛ وانظر كيف جعل سبحانه ميزتهم التي يمتازون بها عن سواهم السجود لا غير، فقال:سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ . وما ذلك إلا للمعنى الذي ذكرناه. وانظر كيف ذكر أن هذه الصفة موجودة في التوراة والإنجيل. وهو ما أشار إليه سبحانه في الآية السابقة من تكذيب أهل الكتاب رغم علمهم بالحق، في هذه المسألة بعينها، أو في عموم ما يتعلق بالكمال المحمدي.

ولا يغب عنك، أن الخطاب التكليفي الوحيد بالسجود ـ عدا في صلاتنا ـ هو الذي ورد للملائكة بين يدي مظهر الخلافة المحمدي، آدم عليه السلام: الأب/الابن، فهو أبو محمد صلى الله عليه وآله وسلم جسما، وابنه حقيقة. فالسجود المأمور به الملائكة كما في قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ ﴾[57]، هو تابع لمرتبة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فخلافة آدم عليه السلام هي خلافة عنه صلى الله عليه وآله وسلم. وإباية إبليس السجود ما كانت إلا لعدم توفر الاستعداد. ومعلوم أن الخطاب التكليفي يعم، لكن إتيان الطاعة يخص. وما هو إلا الاستعداد. وهو عين الإذن الإلهي إن عقلت. ولن نبسط الكلام في توابع هذا الحكم، وما يستدعيه من تساؤلات في أذهان من ليست له خبرة بهذه العلوم، لأن ذلك سيخرج بنا عن قصد الكتاب.

وأما ما ذكره الله عمن لم يستجيبوا لدعوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ ﴾[58]. فاعلم أن المقصود بالرحمن هنا الله ـ أي المسمى ـ لكن من وجه عمومه لجميع الأسماء الإلهية، حتى يدعو السامعين

[56] . الفتح" 29.
[57] . طه: 116.
[58] . الفرقان: 60.

الذين لهم إلف بالصفات مما يعهدون، إلى الوجه الذاتي. وإلى هذا الوجه أيضا،الإشارة بقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾[59]. وانظر ـ يرحمك الله ـ إلى تأكيد المعنى الذي نبهناك إليه، في قوله تعالى:أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ. فهو سبحانه يحيلهم إلى ما يعلمون من الأسماء، ليدلهم على الذات، أي على المسمى. وإنكار من ذكرهم الله في الآية السابقة السجود للرحمن، هو استبعادهم للفناء الوارد في الشرع المحمدي الخاص. فهم يعلمون عبادة الأسماء ـ بعضها ـ ولكن استعدادهم، لم يعطهم الاستشراف إلى عبادة المسمى. فهذا هو وجه إنكارهم. وأما العدول عن ذكر الاسم "الله" إلى الاسم "الرحمن"، فهو لإلفهم بذكر الاسم "الله" في الدعوات السابقة. فلو دعاهم إلى السجود للاسم" الله" لاختلط عليهم المعنى المقصود بالمعنى المألوف، الذي لم يكن إلا معنى الاسم الجامع. ولو أنهم استجابوا عندها ـ فرضا ـ لكانت استجابتهم صورية، لا حقيقة لها. والداعي حكيم، يريد أن ينبههم إلى معنى جديد عليهم. وذكر الذات هو المعبر عنه في الشرع بالاسم الأعظم. فاعلم هذا!

واعلم أن من الأمة المحمدية، من ينفر من هذه الدعوة المحمدية الخاصة، كما نفر منها سابقوهم من أهل الكتاب. وهذا هو الفرقان ـ اسم السورة ـ بين المحمديين وسواهم، سواء من الأمة وراثة، أو من أهل الكتاب نسبة ووراثة.

واعلم أن هذه الدعوة المحمدية العليا، كانت مرتقبة لدى الأنبياء عليهم السلام، ليختم لهم صلى الله عليه وآله وسلم بها الدعوة عموما. وهذا الارتقاب، ورد صورة فيما حكاه الله عن إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩ ﴾[60]. فرفع القواعد من حيث المعنى هو إقامة العقائد، ودعاؤه عليه السلام ببعث رسول بصيغة التنكير، هو بسبب علمه الضروري به. لذلك يقال في صفة نبينا عليه وآله الصلاة والسلام، هو دعوة إبراهيم. فهو من تتحقق على يديه دعوة إبراهيم ذوقا، لا عقيدة فحسب. فتلاوة الآيات هنا المقصود بها تلاوة الذوق. وهي سبب اختلاف أهل القرآن في المراتب. فإبراهيم عليه السلام هو أول من نبه إلى المرتبة الذاتية. فدعوته كاملة من حيث العلم، ودعوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أكمل بسبب التحقق. وهو يعني العلم وزيادة، أو قل هو يعني العلم في أعلى مراتبه. من هذا الوجه كانت المناسبة بين دعوة إبراهيم ودعوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فقال الله في ذلك: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا ﴾[61]، فنحن والأنبياء عليهم السلام

---

[59] . الإسراء: 110.
[60] . البقرة: 127 - 129.
[61] . النساء 125.

متبعون لملة إبراهيم، وفضلنا على الأمم السابقة بالتحقق بما لم يتحققوا به. فالملة إن نُسبت إلى إبراهيم من حيث الترتيب الزماني، فهي منسوبة إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم من حيث الحقيقة. وأما قول الله: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[62]، فإنه يدل من جهة، على أن الأصل لا ينسب إلى الفرع كما هو معلوم، وفيه تصحيح لدعوى اليهود والنصارى؛ ومن جهة أخرى، يدل على أن اليهود والنصارى إما حرفوا ما جاءهم من عند الله، وهذا ما حصل بعد طول العهد؛ أو أنهم كانوا قاصرين حتى وقت كونهم على الحق.

واعلم أن الأصنام عند من يعبدها، هي مظاهر للأسماء الإلهية، خصوصا أسماء الأفعال. ونعني أنهم أقاموها لاستحضار معاني الأسماء. واتخاذ بعض الناس الأصنام، يناسب كثافة إدراكهم، فهو لا يتمكن من تجاوز المحسوس. وتحطيم إبراهيم عليه السلام لأصنام قومه، هو من مقتضيات دعوته. فهو يدعو إلى ما فوق معاني الأسماء. وذلك لأن الأسماء نِسب عدمية. فلا وجود إلا للذات حسا على التحقيق. وأفردنا الحس هنا، لأنه آخر التدليات. فلا أقرب منه في الإدراك. وكل من هو مع الأسماء، سواء أسماء الأفعال أو أسماء الصفات، فهو مع أصنام معنوية، كما كان قوم إبراهيم عليه السلام، والمشركون من العرب، مع أصنام حسية. والمرتبة التي نومئ إليها هنا خاصة بأفراد من الأمة، وهم الذاتيون. فإياك أن تقيس بما نقول على العامة! ومن هنا تعلم أحقية محمد صلى الله عليه وآله وسلم بتحطيم الأصنام. فهو الإمام فيما فعله إبراهيم عليه السلام، وإن تأخر عنه بالزمان. فكان ذلك وقت فتح مكة، المؤذن بفتح باب الترقي إلى المرتبة الذاتية.

ومن علم ما قلناه، علم لِمَ كانت أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أشرف الأمم، وعلم، لِمَ كانت الأنبياء عليهم السلام من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

والكلام يطول ويتشعب في خصائصه صلى الله عليه وآله وسلم، ونحن إنما أردنا التنبيه إلى ما يتصل بالصلاة فحسب، على وجه الإجمال.

[62] . آل عمران : 67.

الباب الثالث
الفتح في الفاتحة

الفصل الأول
الفتح في الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي فتح مغاليق غيوب الذات بظهور أحكام الأسماء والصفات، وجعل الفاتحة مرآة جامعة لما تمثل في الكتاب من تجليات السور والآيات، وفتح باب التعرف منه بها إليه بأوضح الدلالات، فتحقق ما في البدء من سابق العناية في الاستعدادات من الكمالات، والتحق الفرع بالأصل وتوالت الهبات، واندرج نور القمر في ضياء الشمس فانفتح بالفاتحة باطن الكتاب على ما كان، في صورة ما هو آت، خطابا من الحق لنفسه أزلا في صور التعينات، بلسان الأسماء عند الاسم الجامع في حضرة المناظرات.

والصلاة والسلام على من كانت الفاتحة حقيقته التي اختص بها من دون سائر الأنبياء، فكان بذلك المظهر الأعم الجامع لجميع النعم والآلاء، واستحق السيادة العظمى على كل الخلق استحقاقا قبل وجود الأمهات والآباء، وعلى آله المتحققين بنسبه الشريف من كل وجه من وجوه حقائقه في الأرض وفي السماء، وعلى صحابته المشرفين بصحبته في كل العوالم من بين المخلوقين في سائر الأزمان وفي غرة زمانه وظهور سلطان دولته الأجلاء.

أما بعد؛ فإن فاتحة الكتاب سميت كذلك بسبب افتتاح الغيب المطلق بها. فهي أول تجل خلقي كما كانت الأحدية أول تجل حقي. ونعني بالخلقي هنا تميزها عن الحق الأول وإن كانت حقا في نفسها. ونعني أيضا وجود ذكر الخلق فيها وإن كان على سبيل الإجمال والبطون. وهذه الحقيقة هي التي تجلت لمن قال بخلق القرآن من خلف حجاب، وإن كان لا يعلمها على التفصيل. لكنْ، للتجلي حكم يتعدى الفهم والعلم.

وسميت أم الكتاب كما في قول الله تعالى:﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[63] لتفرع الأكوان العلوية والسفلية عنها. فهي سابقة بالمرتبة كل الأكوان. ونسبة الأكوان إليها نسبة الولد إلى الأم، ونسبة البعض إلى الكل، لأنها لا تخرج عنها.

وسميت السبع المثاني في قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾[64]، لأنها المظهر الأول للصفات الأمهات التي هي أصل كل الصفات، والتي هي: الحياة والعلم والقدرة

[63]. الزخرف: 4.

والإرادة والسمع والبصر والكلام. وكانت هذه الصفات مثاني لكونها بعد أن كانت حقيّة صارت خلقية. وهي على التحقيق تثنية حكم لا تثنية عين، كما قد يتوهم المتوهمون. فهذه الصفات السبع هي فاتحة تجلي الصفات، وصفة الحياة هي لها كالبسملة للفاتحة.

وكما أن القرآن والذي نعني به هنا الكتاب، له تجل في حضرة الواحدية ثم في صورة العالم ثم في النشأة الإنسانية ثم في المصحف المكتوب والمقروء، فكذلك الفاتحة لها تجل في الحقيقة المحمدية ثم في هيولى العالم ثم في الفطرة التي فطر الله الناس عليها ثم في السورة التي ضمن المصحف الشريف. وكما جُمعت معاني القرآن في الفاتحة وأُجملت، فكذلك معاني الفاتحة هي مجملة في البسملة التي هي فاتحة الفاتحة. وأجملت معاني البسملة في الباء، وبطن الكل في النقطة التي تحت الباء. والسر في هذا أن النقطة هي أصل الخط، الذي هو بمثابة أول تجل لها في صورة " ا "؛ باعتبار أن الألف هو مجموعة من النقط المتلاصقة. لذلك كان الألف أول الحروف، وله من العدد الواحد. والألف الذي هو تجلي أحدية النقطة التي هي الغيب المطلق ــ والذي يبطن فيه (أي في مرتبته) كل تجل وبالتالي كل علم ، فلا يتعلق به علم ــ هو (أي الألف) أصل الحروف الهجائية كلها. فصورة كل منها هي ألف محدبة، أومستديرة الرأس أومكسّرة إلى غير ذلك من الأشكال التي تتخذها الحروف. فالحروف المعروفة باطنة في الألف والكل باطن في النقطة. وبما أن التجلي الخلقي لا يقع في مرتبة الألف لاستحالة تعلقها بشيء وامتناع ذلك من حيث الحقائق، وقع الابتداء في البسملة بالباء التي هي في المرتبة الثانية، لإمكان أن تكون سببا لوجود ما بعدها. ألا ترى أن من معاني الباء الإلصاق والمباشرة في اللغة؟!

أمّا تعلق الحروف بالألف إذا جاءت بعدها فمن حضرة أخرى، تكون فيها الألف تجليا للآخِر الذي لا بد من اتصالها به كي يمدها فتبقى ببقائه، أي بإبقائه. ولولا ذلك الاتصال مابقيت العوالم بإبقاء الله. نعني ما يبقى منها. بخلاف الألف المستقلة قبل الحروف التي هي تجلي:« كان الله ولا شيء غيره»[65]. وأما حروف المد غير الألف والتي هي الواو والياء، فمن حيث الحقيقة هي ألف، تعطي الحروف المتصلة بها ما تعطيه الألف من مدد، لكن في مقام مخصوص يعود إلى معناها الخاص بصورتها. فالواو للرفع وهي لأصحاب الجِنان، والياء للخفض وهي لأصحاب النيران؛ أما الألف التي بقيت على أصلها صورة ومعنى في مدها للحروف فهي لأصحاب الأعراف وعلى رأسهم الأقطاب المحمديون؛ مَن صورتهم على صورة استقامتها، وحقيقتهم على صورة معناها.

وقد قلنا إن النقطة لا يتعلق بها العلم من حيث ما هو نسبة، بسبب بساطتها وسذاجتها وعدم تعقل معنى فيها غير كونها نقطة. أي أصلا لكل شيء، سواء كان حقا أم خلقا. أما الألف فهي

---

[64]. الحجر: 87.

[65] . أخرجه البخاري.

تجلي النقطة لنفسها، وهو أول تنزل لها في المراتب. وقد قال قوم بجواز ذوق الأحدية، وهو حق إذا اعتبرنا عودة الحروف إلى أصلها. فما عرف الألفَ هنا غير نفسها. وهذا أصل معنى الترقي في المراتب. وقال آخرون بعدم إمكان ذوق الأحدية، وهو حق باعتبار بقاء الحرف على مرتبته الخاصة التي هو بها غير الألف. بمعنى أن غير الألف لا يمكن أن يكون له ذوق في مقامها؛ ولا تعارض. أما من الباء فصاعدا، فهو مجال معرفة الحروف بحقيقة الألف في نفسها، أي في نفس الحروف. فالحروف زوجية الحقيقة: فمن حيث الأصل هي ألف، ومن حيث الصورة: هي الحرف الخاص من حروف الهجاء. فمن حيث الحقيقة لا تعدد، ومن حيث المعنى الخاص وقعت الكثرة.

وكما أن الله هو الأول من حيث سبقه العالم في المرتبة، فإن الحقيقة المحمدية التي هي الفاتحة في صورة، والباء في صورة أخرى، هي الثاني. وقد سبق بعض أهل الله إلى استعمال هذا الاسم في كتبهم بهذا المعنى الذي ذكرنا. وقد نُقل عن الشيخ أبي مدين الأندلسي أنه كان يقول:" ما رأيت شيئا إلا رأيت الباء عليه." فاعلم مشهده.

والباء التي هي للاتصال، تقطع توهم المتوهم بالانفصال إذا هو شهد الكثرة وشهد الصور العدمية. فأحدية الذات سارية في الجميع. وإذا قلنا بعدم الانفصال، صح القول بعدم الاتصال لانتفاء توهم وقوعه. فهما متلازمان عقلا، نفيا وإثباتا. فافهم.

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ﴾:

بعد الإشارة إلى عدم وقوع الانفصال العيني، وقع الابتداء بكلمة "اسم" بصيغة التنكير مضافة إلى "الله" الذي هو اسم الذات على وجه العَلَمية على قول؛ أو هو اسم المرتبة اشتقاقا على قول آخر.

وقد جاء التنكير في "اسم" ليشمل كل اسم هو لله، معلوم وغير معلوم. فهو معنى مفتوح بسبب الإطلاق الذي للذات. فتجليات الذات لا حصر لها حتى تحصر في أسماء معينة. والإضافة إلى "الله" تفيد أن المسمى واحد، وهو الله، وإن اختلفت الأسماء واختلفت معانيها. وفي الحقيقة ما حُجب محجوب عن الله، إلا لوقوفه مع اسم خاص يعتقد فيه أنه غير الله. وقد جاء في الحديث: « أن ناسا قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال فإنكم ترونه كذلك. يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول من كان يعبد شيئا فليتبعه. فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها. فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: نعوذ بالله منك. هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا. فإذا جاء ربنا

عرفناه. فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون فيقول: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه ... »[66]. فإنكارهم لله في غير الصورة التي يعرفون، هو ما عنيناه من انحجابٍ باسمٍ ما عن المسمى الذي هو الله. وهو هو، كما يصرح الحديث. فما عرفوا إلا هو، وما أنكروا إلا إياه.

أما ألف "اسم" في "بسم" فقد حذفت رسما مع بقائها حكما، بسبب أن أحدية الذات بطنت بظهور آثار الأسماء. ولولا هذا البطون، ما كان للأكوان ظهور؛ فإن شمس الأحدية ماحقة. وقد سمي العارفون بأهل الباطن في الاصطلاح، لكون الله قد بطن عند ظهور أعيان الخلق، فصار المحجوبون لا يعلمون منه إلا حكم ألوهيته، بخلافهم هم. فإن الله قد اختصهم من عنده بعلم الحقائق على ما هي عليه. والمحجوبون، المشهودُ لديهم عينا هو صور الخلائق. والانحجاب بصور المخلوقات هنا هو عينه الانحجاب عن الله يوم القيامة في الصور، المذكور في الحديث الآنف؛ لأن صور الأكوان هي آثار مختلف الأسماء. فمن عرف الله هنا عرفه هناك؛ ومن انحجب عنه هنا انحجب عنه هناك: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢ ﴾.[67]

ثم ذكر "الرحمن الرحيم" على قول من قال بأنه اسم مركب، في الجهة المقابلة لجميع الأسماء على معنى البدلية. فـ "بسم" من جهة، و"الله" في الوسط، و"الرحمن الرحيم" في الجهة المقابِلة. فيكون "الرحمن الرحيم" صورة لكل اسم إلهي، وذلك بمعنيين: بمعنى شمول الرحمة في الاسم "الرحمن"؛ وقد وردت الإشارة إليه في قول الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾[68]. فجعل الأسماء الحسنى للرحمن كما هي لله. وهذا هو الشمول. ويفيد أن الرحمة سارية في جميع الأسماء سواء كانت أسماء جمال أو أسماء جلال. ثم بمعنى الاختصاص في الاسم "الرحيم" الذي يظهر به فضل السعداء من عباده على غيرهم، وعلى رأسهم أنبياؤه وأولياؤه. فتبيّنَ أن رحمة الاختصاص هي المقصودة بالقصد الأول، والرحمة الأخرى تبع لها. وهذه الثنوية في الرحمة هي التي أعطت ثنائيات رحمة الوهب ورحمة الاستحقاق، الرحمة الظاهرة والرحمة الباطنة، الرحمة الدنيوية والرحمة الأخروية. ومن علم ما أشرنا إليه من عموم الرحمة، علم قطعا أنه ما ظهر في الوجود إلا هي. وعلم أن كل موجود مرحوم. وأولى الرحمات، ذوق الوجود بعد ظلمة العدم. ومن عجيب الأمر أن الموجودات ما خرجت عن عدمها في وجودها. وهو أمر دقيق قد لا يتفطن إليه كل أحد. فإن الحقائق لا تتبدل كما يقال.

وقد جاء ذكر معنيي الرحمة في قول الله تعالى: ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا

---

[66] . أخرجه مسلم.
[67] . الإسراء: 72.
[68] . الإسراء: 110.

عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[69] . فقوله سبحانه: ورحمتي وسعت كل شيء: هي رحمة الرحمن؛ وما جاء بعد "فسأكتبها" هي: رحمة الرحيم.

وإذا علمنا أن "الله" يشمل جميع معاني الأسماء الإلهية، بما فيها "الرحمن الرحيم"، علمنا أن هذين الاسمين قد جاء ذكرهما مرتين في البسملة وحدها. مرة باطنة في الاسم "الله" ومرة ظاهرة. والتكرار كما هو معلوم من أساليب التوكيد. وورود البسملة بهذه التركيبة، بشارة للوجود بأجمعه بالرحمة. وقد أشار الحديث القدسي إلى هذا المعنى نفسه، حيث جاء فيه عن الله تعالى:« سبقت رحمتي غضبي »[70] . فالسبق هنا سبق المرتبة. بمعنى أن الرحمة أصلية، والغضب عارض. فتجلّى سبقُ المرتبة في سبق الإدراك. فأدركت الرحمة الخلق قبل أن يدركهم الغضب. ونعني بالغضب هنا الغضب المحض. فافهم. واعلم أن الغضب المحض لا يتعلق بمخلوق لأنه جلال صرف. والجلال الصرف محق تام. ومن هنا قال بعض أهل الله أن تجلي الجلال وتجلي الجمال لا يفترقان. وما قد نسميه جمالا أيضا هو بسبب غلبة الجمال، وليس جمالا محضا. لأن الجمال المحض ينقلب جلالا. أوقل هو جلال في الأصل. وما قد نسميه جلالا، فهو لغلبة الجلال لا لخلوصه. وعدم وجود الغضب الصرف، هو من الرحمة كما سبق أن ذكرنا. فاعلم من أين المبتدأ وإلى أين المنتهى.

وقد اختلف أئمة المذاهب في كون البسملة آية من الفاتحة، أوهي آية مستقلة للفصل بين السور، أوهي ليست بآية أصلا. والذي عليه المحققون هو أنها آية من الفاتحة كما سبق أن بيّنّا.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكر "بسم الله الرحمن الرحيم" عند بداية كل أمر ذي شأن، وأمر بذلك. وهل كان صلى الله عليه وآله وسلم يفعل، لو لم يلحظ سرها، ولم يأتَمَّ بالله في ذكرها؟

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾:

الحمد هو الثناء. ويكون بكل الأسماء، فكل اسم حامد لله على الرحمة التي أدركته حتى ظهر أثره، بالخاصية التي له. وبهذا يكون الحمد غير متناه لعدم تناهي الأسماء. وتكون "الـ" في "الحمد" للاستغراق كما هي للجنس والعهد.

وإذا كان المحمود هو الله، فإن الحامد هو الله أيضا. ولام الجر في "لله" تكون للنسب كما تكون للاستحقاق والصيرورة.

---

[69] . الأعراف: 156 - 157.

[70] . أخرجه مسلم بهذا اللفظ ، ومثله عند البخاري وأحمد.

وفي معنى صدور الحمد عن الله وعوده إليه سبحانه، جاء قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:« لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك »[71].

ووصف الله برب العالمين، جاء بسبب كون الأسماء الإلهية هي التي يربّ الله بها العالمين (جمع عالم). والعالَمون منهم عالم الدنيا التي نعلمها، وعالم البرزخ وعالم الآخرة اللذان أُخْبِرْنا عنهما فآمنا، وعوالم أخرى نعلمها وأخرى لا نعلمها ولا يتعلق بها علمنا إلا على سبيل الإجمال، وإيمانا بمقتضى هذه الآية الكريمة، التي قد يغفل بعض الناس عن مدلولها.

وأمْرُ العبد بتلاوة " الحمد لله رب العالمين " تعريف له وتشريف. فهي خلافة عن الحق في التلاوة. وهو وما يعطيه مقامه: فمن حامد لله باسمه المخصوص، إلى حامد له بجميع الأسماء كما هو حال القطب. وفي الحديث السابق « لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك » إشارة إلى أنه صلى الله عليه وآله وسلم حامد لله بالله. وهو تمام الحمد. ومن هذا المقام حُبب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الطيب في عالم الحس.

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ ﴾:

تأكيد للرحمة مرة ثالثة. وورودها بعد ذكر العالمين، إيذان بانتهائهم إلى الرحمة كما كان ابتداؤهم منها. فالرحمة محيطة بهم. وليس بعد هذه البشائر المتوالية بهذه الصيغ المختلفة من مزيد.

﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾:

افتتح الله الأسماء بذكر الاسم "الله" الذي هو قطب الأسماء والاسم الخاص بالقطب صاحب الخلافة الإلهية. ثم ذكر الاسم "الرب" وهو الاسم الخاص بالإمام الذي عن يمين القطب، ثم ذكر الاسم "الملك" الذي هو الاسم الخاص بالإمام الذي عن يساره. وهذه الأسماء هي أئمة الأسماء التي بها يقع التصرف في العوالم.

و"ملك يوم الدين" هو القوي عليه وصاحب الأمر فيه. والدين هو الجزاء (من دان يدين)، وقد يفهم منه الإجادة.

يفهم أهل الظاهر "ملك يوم الدين" فهما جلاليا، يُنتج لهم الخوف ممن سيقفون بين يديه ويسألهم عن كل أمورهم. وهو فهم صحيح. أما أهل الباطن فيفهمون منه أن الله الرحمن الرحيم الذي استهل الذكر بالرحمة المؤكدة، هو نفسه من سيتولى من اسمه الملك حسابهم يوم الدين. فهم مع الاسم الله الرحمن من خلف الاسم الملك لا يحجبهم عنه. ومعناه أن الملك، بعد تدرجهم مع أسمائهم، لن يُسْلمهم لقوته إلا إلى الرحمن الرحيم. وكذلك الأمر إن شاء الله. وهذه بشارة أخرى لديهم بالرحمة. ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا

[71] . أخرجه مسلم والنسائي وابن ماجة وأحمد.

﴿ ٨٥ ﴾[72]. وصدق الله إذ يقول عنهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾[73]. فعدم خوف الأولياء هو بسبب علمهم الخاص لا غير. وبه نفسه حصلت لهم البشرى في الدنيا. أما بشرى الآخرة، فزيادة على ما حصّلوه في الدنيا، تحصل لهم بشرى تميزهم عن غيرهم بحقيقتهم. فالآخرة موطن ظهور سلطان الولاية. لكن ينبغي أن تعلم أن عدم الخوف لا يعني انتفاء الخشية التي هي من مقتضيات شهود العظمة. بل الخشية تكون على قدر العلم. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا »[74]، وجاء في الكتاب العزيز: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[75].

وإن كان "الله" اسما للذات، و"الرحمن الرحيم" من أسماء الصفات، فإن "الرب" و"الملك" المضافَيْن من أسماء الأفعال. فها قد ورد ذكر الأسماء بجميع مراتبها في هذه السورة المباركة.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾:

جاء في الحديث القدسي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله قال: « من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها؛ وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه. وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته .»[76]. ذكر الشيخ الأكبر قدس سره ـ وما أحسن ما ذكر ـ أن عبادة الفرض يكون فيها الله سامعا بالعبد مبصرا به، إلى غير ذلك من القوى. ففي عبادة الفرض يكون الله بالعبد، وفي عبادة النفل يكون العبد بالله. فالأولى تحقيق: (إياك نعبد)، والثانية تحقيق (إياك نستعين). فـ (إياك نعبد) سلوك. وما من العباد إلا وهو سالك، سواء كان مؤمنا أم كان من الكافرين. والاختلاف إنما يكون في ترتيب المراحل وتمايز الطريقين؛ حتى أن النار في حق المؤمن تكون معجلة في الدنيا على صورة الابتلاءات والمجاهدات، ونار الكافر تكون له مؤجلة في الآخرة، ودارَ مقام. وعلى هذا فقس جميع مراحل السلوك؛ و(إياك نستعين) وصول. وهو الذي يحصل في هذه الدار لأهل الله. وعلى التحقيق ما عبد عابد وتحققت له (إياك نعبد) ـ والكل عابد طوعا أوكرها كما قال الله تعالى:﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[77] ـ

---

[72] . مريم . 85.
[73] . يونس . 62 - 64.
[74] . أخرجه البخاري.
[75] . فاطر . 28.
[76] . أخرجه البخاري عن أبي هريرة.
[77] . آل عمران . 83.

إلا بـ (إياك نستعين). سواء علم ذلك وكان من العارفين، أم لم يعلم، وكان محجوبا من الغافلين. فالفرق إنما هو بالعلم: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾[78]، ثم بالعمل على مقتضى العلم (الشرع) الذي هو الصراط المستقيم.

ومن بداية الفاتحة إلى هنا، كان التجلي حقيا، أحديا وواحديا وربيا؛ أما من هنا فقد صار التجلي خَلقيا بتكلم الله على لسان عبده وتجليه في الصور المختلفة للعباد. والتجلي الخلقي، هو تجل حقي في مرتبة الأفعال. فإياك أن تظن غير ذلك. وإنما اختلفت التسمية لضرورة التمييز الذي تقتضيه الحكمة.

والسلوك الذي تكلمنا عنه سابقا، إنما هو سلوك ـ أي سير ـ من توهم الغيرية ـ وهو ما يطلق عليه النفس ـ إلى محل انتفائها. وهو ما يعرف بالوصول المؤدي إلى التحقق.

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾:

الصراط: الطريق. هذا يدل على أن الطريق طريقان؛ فقد قال الله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾[79]. فأحد هذين الطريقين قريب، وهو الصراط المستقيم؛ والآخر بعيد وهو الذي يمر عبر جهنم. وقد قال الله في أهل النار: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾[80]. ووصف الصراط بالاستقامة لكون أقصر خط بين نقطتين، الخط المستقيم. فاستقامته هي نفس قربه. وطلبُ الهداية إلى الصراط المستقيم دون غيره، وقع لتمييز طبقة السعداء عن الأشقياء، أهل الجمال عن أهل الجلال. وهذا التمييز والتخصيص هو من الرحيم الذي استخلص لنفسه قبضة السعداء. والسؤال هنا بالحال ثم بالمقال. وسؤال الحال مستجاب على الدوام، بخلاف سؤال المقال الذي قد يؤجل للعبد إما إلى أمد في الدنيا، أوإلى الآخرة. ومن أهل الجمال استخلص الله أهل الكمال الذين هم أهل الرعاية الإلهية والعناية. ومن هذه العناية السابقة أن نسب إليهم سبحانه الصراط. فبهم كان الصراط صراطا مستقيما، فقال جل من قائل:

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾:

الذين أنعم عليهم الله ، هم من ذكرهم في قوله سبحانه: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾[81]. ومعنى نسبة الصراط إليهم هو نفسه معنى معيتهم. فإن الآية تبشر المطيعين لله ورسوله بمعية هؤلاء. فمعيتهم جزاء لغيرهم من السعداء وإنعام عليهم. فهم أئمة الطريق حقا. وإنعام الله عليهم هم،

---

[78] . الزمر . 9.
[79] . البلد . 10.
[80] . فصلت . 44.
[81] . النساء . 69.

ليس كإنعامه على غيرهم من عامة المؤمنين كما قد يتوهم من يقف مع اللفظ المجرد. بل هو إنعام خاص من نبوة ومعرفة وشهادة وصلاح. وهذه كلها، هي دلالات الخصوصية.

ومن الأحكام التي يمكن أن يستنبطها المستنبط من هذه الآية، هو أن من لم يكن مع إمام من الأئمة المذكورين، على الاتباع الصحيح لا القولي، لا يكون على الصراط المستقيم حقيقة. وذلك أن الكون على الصراط المستقيم قد يدعيه كل أحد مع الغفلة، ولكن الله جعل الذين أنعم عليهم بذكره لهم في هذه الآية، معيارَ تحقيق السير عليه. فالصراط ليس مجردا كما يحب أهل الأهواء أن يفهموا. بل هو صراطهم كما سبقت الإشارة إليه. فاعلم والزم.

ومن لم يكن معهم حقيقةً أوعقيدةً فهو مع الصنف الآخر، المذكور في قوله سبحانه: (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) وجعلهم طائفتين.

يقول أهل الظاهر أن المغضوب عليهم هم اليهود والضالين هم النصارى. وهو صحيح. لكن حصر الصفة في موصوف بذاته هو من تقييد المعنى. والأصح أن المغضوب عليهم هم أهل الجحود الذين ينكرون الحق بعد علمهم به كما قال الله عنهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [82]. فكل من كانت فيه هذه الصفة فهو من المغضوب عليهم. سواء كان من أهل الكفر الأكبر، أم كان من أهل الكفر الأصغر من أمة الإسلام. والضالون هم من أخطأوا الطريق إلى الحق. وقد قال الإمام علي عليه السلام: "ليس من طلب الباطل فأصابه، كمن طلب الحق فأخطأه". ومن الضالين أهل الضلال الأكبر كالنصارى، ومنهم أهل الضلال الأصغر من الأمة وهم كثر. فكل من قنع بشيء دون الله، مما يُتخذ قربة في ظاهر الأمر فهو منهم. فمن وقف مع علمه فهو منهم، ومن وقف مع عمله الذي يراه صالحا فهو منهم، ومن وقف مع شيخه بعد انتقاله ولم يكن قد أوصله إلى الله فهو أيضا منهم، وهكذا ..

فمن كتب الله له السلامة من لحوق الغضب به والسلامة من الضلال، هداه إلى صحبة المنعم عليهم. ومن فاته تحقيق الصحبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلا تفته صحبة الصديقين والصالحين من الأمة؛ مع كون الصحبة لرسول الله لم تنقطع بانتقاله صلى الله عليه وآله وسلم عن الدنيا. فهو أجلٌّ عند الله من ذلك.

جاء في الفاتحة ذكر الذات الساذجة وذكرالمبدأ والمعاد، وذكر السبيلين وأصناف السالكين، وذكر أهل السعادة وأصنافهم، وأهل الشقاء وأصنافهم، والعبادة وأنواعها والآخرة وداريها، فعمت جميع مراتب الوجود، وكانت بحق أم الكتاب. وما يأتي من القرآن بعدها إلا وهو تفصيل لها. صدق الله.

[82] . الأنعام . 33.

وقد جعل الله تلاوة الفاتحة في الصلاة فرضا، كما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب »[83]. فالصلاة هي الوُصلة. ولا وصلة لمن لم يتوسل بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، أي يجعله وسيلته إلى الله. وذلك لأن حقيقته صلى الله عليه وآله وسلم، كانت وسيلته الوجودية. فوجب العمل على مطابقة الأصل كي تتحقق الوصلة المعرفية المشروعة. بل لقد سمى الله الفاتحة صلاة فقال في الحديث القدسي: « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، ولعبدى ماسأل، فإذا قال العبد: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِين) قال الله: حمدني عبدى. وإذا قال: (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) قال الله: أثنى علي عبدى. فإذا قال: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) قال الله: مجدني عبدى. وقال مرة: فوض إلي عبدي. فإذا قال: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) قال سبحانه وتعالى: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ) قال الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل »[84]. وقسمة الفاتحة بين الله والعبد صحيحة. فهي قسمة بين الحق والخلق حكما من حيث الوجود، وقسمة بين الصفات الأمهات من حيث النسبة كما ذكرنا فيما قبل، وقسمة في الآيات ثلاثا ثلاثا، عدا البسملة التي هي للحق والخلق معا، فهي مشتركة.

فتلاوة الفاتحة على التحقيق لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهو الإمام. وتلاوة غيره هي: إما تلاوة تحقيق، وهي للعلماء بالله وهم المأمومون؛ أو تلاوة لفظ، فهي لعامة المسلمين الذين هم الصف الآخِر. ومِن هنا يُعلم مقام الرجولة من مقام النساء في المعنى. والحمد لله رب العالمين.

[83] . أخرجه الترمذي في سننه.
[84] . أخرجه مسلم والنسائي.

خاتمة الكتاب

أردنا من خلال هذا الكتاب أن ندل على عمق الدين الإسلامي المجهول، حتى تتجدد نظرة المسلمين أنفسهم إلى دينهم، ويعلموا علم يقين أنه الدين الحق؛ وحتى يتبين غيرهم من بني الإنسان، أن الدين يجيب عن أكثر الأسئلة استعصاء لديهم.

نعم، نعلم أن الكتاب هو بمثابة خارطة طريق، لا يمكن أن يُلم بها وبتفاصيلها القارئ غير المتخصص؛ كما نعلم أنه لن يستطيع المجاوزة إلى التطبيق العملي من دون إمام مرشد رباني.

وقصدنا في النهاية أن نُعيد إلى الربانية اعتبارها في الأمة، بعد أن أعيت الأدواء نُخبتها من علماء الدين ومن المفكرين؛ لعلنا نظفر بما ظفرت به طبقات من أسلافنا، صرنا نحتفي بهم في مناسبات خاصة، وكأن الأمة عقمت عن إنجاب أشباههم، أو إنجاب من يفوقونهم في مجالهم.

عَمَلنا هذا، ينطلق من حسن ظننا بالله، ثم من حسن ظننا بأمتنا، التي تتعرض إلى تحريف لمسارها، مدبر من أعدائها أو ممن ينخرطون في مخططاتهم من أبنائها، بقصد وبغير قصد.

نعلم أن إعادة الثقة إلى الأمة ـ عامة ـ بربها، وبنبيها ـ على وجه التحقيق ـ لا زال أمامها مرحلة من الزمان، ومجهود يشترك فيه أبناؤها، كل من موقعه وعلى حسب طاقته ووسعه.

لكن هذا لا يمنعنا من مخاطبة طائفة من إخواننا، جربوا أن يقوموا على أقدامهم، فاكتشفوا أن ضعفهم لا يسمح بذلك؛ وطائفةٍ تعمل وفق الشرع ليلا ونهارا ـ حسب مبلغ علمها ـ ولكنها لم تجن من ثمار الدين التي عاش على حلاوتها الأولون إلا القليل الذي لا يفي بما يتطلبه الزمان؛ وطائفةٍ اشتغلوا بتزكية نفوسهم ـ يقينا أو ظنا ـ فلم يدركوا ذرى امتطاها أئمة سابقون يحظون يتبجيلهم، فلا هم لحقوا فارتاحوا، ولا هم لزموا منازلهم فتجنبوا عناء السفر.

نفتح أمام كل هؤلاء، بابا واسعا من الرجاء، يصحبهم فيه المدد النبوي الذي أقات صحابة وتابعين، والنور الهادي الذي يكشف لهم مدلهمات الأمور، في سبيل تعرّف الحق؛ محمولين بعناية لازمة للإرث النبوي الذي لا تغيب شمسه وإن حجبها الغمام فترة أو فترات.

سائلين الله لعموم الأمة التوفيق والسداد، ورحمة تستغرقها على مدى الزمان والمكان، بجاه من نسبتها إليه رفعتها فوق الأمم كلها استحقاقا، فكانت خير أمة أخرجت للناس حقا وصدقا، لا عصبية وجهلا. فصلى الله عليه ما صلى مصلّ صلاة، وسها عن صلاته ساه، وعلى آله الأطهار، وصحابته الأخيار، وكل من صلى عليه مرة في ليل أو نهار، وسلَّمَ تسليما طيبا عبِقا بطيوب الأجسام والأرواح وأرواح الأرواح، مما في الأبد سيفوح أو في الأزل فاح. والحمد لله رب العالمين، الذي يجود علينا بما هو فوق ما تناله هممنا، أو تطوله أعمالنا، أو تصل إليه أفهامنا، حمدا منه وإليه.

فهرس

مقدمة..... 5

الباب الأول: أحكام السلوك:

الفصل الأول: شروط الصلاة..... 15

الفصل الثاني: الوضوء..... 26

الفصل الثالث: الصلاة..... 33

الفصل الرابع: السلوك الثاني.....49

الفصل الخامس: العروج.....55

الفصل السادس: مبطلات الصلاة.....61

الفصل السابع: مكروهات الصلاة.....65

الفصل الثامن: متفرقات.....75

الفصل التاسع: صلاة الجمعة.....85

الفصل العاشر: صلاة الجنازة.....92

الفصل الحادي عشر: ركعات الصلوات.....100

الفصل الثاني عشر: وهمية السير.....102

الباب الثاني: مراتب الصلاة:

الفصل الأول: أحكام المصلي.....109

الفصل الثاني: مراتب المصلين.....113

الفصل الثالث: القبلة والمراتب.....117

الباب الثالث: الفتح في الفاتحة:

الفصل الأول: الفتح في الفاتحة.....129

خاتمة الكتاب:.....153

الفهرس.....157